نحو مسرح إسلامي معاصر (٦)

العبور مسرحيات إسلامية ذات فصل واحد

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرست
إضاءات
العبور
التحدّي
التمثيل
الظن
الاضطهاد

بسم الله الرحمن الرحيم

إضاءات

(١)

قد يتساءل القارئ – أو المشاهد – وهو يتابع مسرحيات هذه المجموعة ، فيما عدا ((العبور)) بطبيعة الحال ، عن البعد الالتزامي في كلٍّ منها. بعبارة أُخرى : عن القيم الإيمانية التي تدعو إليها وتبشّر بها أو تمسّها من قريب أو بعيد.

وهو تساؤل في محلّه تماماً ، ((فالتحدي)) و((الظن)) و((التمثيل)) و((الاضطهاد)) تتحرك باتجاه آخر ، هو ما سبق أن أسميناه في (مدخل إلى نظرية الأدب الإسلامي): ((الهدم الجمالي المؤثر)).

فإن معالجة القيم الإيجابية ليس هو – بالضرورة – الصيغة الوحيدة التي يمارس من خلالها الالتزام – بشروطه الفنية بطبيعة الحال – فهنالك – بالمقابل – ما يتحتّم أن يكون : تدمير القيم والمواقف والممارسات والتصورات السلبية ، وإعلان الحرب عليها.

وطبيعي أن تكون البدائل غير المعلنة ، مستمدّة بالضرورة من عالم الإيمان الوضيء الرحيب ، طبيعي أن يتشبث المرء بعد قراءة أو مشاهدة أية مسرحية تتخذ هذا المسار ، بعالم مطمئن آمن متفائل سعيد ، لا تحاصره المخاوف ولا تسوده الأهواء والظنون ، عالم لا يمارس القتل فيه بالنزوة أو الخطأ ، ولا ينسحق فيه الإنسان ويُساق إلى عيادات الأمراض النفسية لأنه يجد جملته العصبية مطحونة – كل يوم– بين مطرقة الظلم وسندان الابتزاز.

مَن يصنع هذا العالم الوضيء ، النظيف ، السعيد ، غير الإيمان الذي يفتقده عصرنا الراهن، أو – بعبارة أخرى – يُراد له ألاّ يتحقق أو يكون !

هذا هو الإيقاع العام للمسرحيات الأربع. وثمة الإيقاع الخاص لكل واحدة منها ، إيقاع يتصادى ، بشكل منظور حيناً ، غير منظور أحياناً ، مع ((قيمة)) محددة ، ثابتة من قيم الإيمان.

في ((التحدي)) يتمنى البطل أن يحيا بلا خوف أو قلق أو وسوسة ، يمارس اللعب وهو مطمئن تماماً إلى أن ليس ثمة ما يتهدده ، أو يخدعه ، أو يفاجئه من الخلف بما لم يكن في الحسبان.

فلو أن شيئاً من الإيمان ، أو اليقين ، عرف طريقه إلى قلب الرجل ، لما كان بمقدور أية قوة في الأرض أن تُخرجه عن دائرة الرضى والائتمان .. حتى شبح الموت نفسه ..

وهو ليس كلاماً يقال .. وليس مَن جرّب كمَن لم يجرّب !

فالمؤمن يعرف جيداً أنه ، خلال جدّه ولهوه ، متكئ إلى جدار ليس كالجدران ، محميّ بترسانة لا تخترقها الوساوس والمخاوف والأحزان. إنه يمارس حياته ، في معظم مساحاتها، خارج دائرة الحزن والخوف والخديعة ! فإذا انهار جدار الإيمان فليس للمرء إلاّ أن يتوقع مَن يخترق ائتمانه الذاتي .. مَن يكفّه عن الطمأنينة واليقين ، حتى ولو كان هذا رجلاً ميّتاً لا يسمع ولا يرى!.

وهكذا يستطيع القارئ أن يبحث عن الإيقاع المتفرّد لكلٍّ من المسرحيات الأخرى. ((فالظنّ)) تحمل مغزاها الواضح الذي حذرنا منه كتاب الله ، وجعل بعضه ((إثماً)) لأنه يسوق النيات والأفعال فيما لا يجب أن يكون. و((التمثيل)) تحقير لتعاطي الخمرة التي تقود هي الأخرى إلى إثم أكبر ، بل إلى القتل أحياناً!

و((الاضطهاد)) تعرض نموذجاً من مئات ممّن تعجّ بهم الشوارع والمقاهي ، والدور والأسواق ، والعيادات والمستشفيات في عالمنا هذا ممّن سحقهم عصر لم يعد يأبه للإيمان ، وللقيم التي يغرسها ويحميها. وثمة محاولات جادة للخلاص .. نعم .. ولكنها جزئية، قاصرة، تعاني من أحادية الرؤية. فبعضهم يردّ المعضلة إلى ((الإنسان)) وبعضهم إلى ((الجماعة)) أو ((البيئة)) ، وليس ثمة لقاء بين الطرفين ، وكأن الإنسان قد كتب عليه أن يعاني من الشد، الذي هو نقيض التلاؤم والتوحّد والانسجام ، بين ألف جهة وجهة ، كلٌ منها يدعوه أن هلمّ إلينا ، فلا يكون مصيره إلاّ مستشفى المجانين !

((العبور)) التي سمّيت بها المجموعة ، تأخذ سياقاً آخر ، إنها أشبه بديالوج بين الماضي والحاضر والمستقبل ، تحكي بمفردات الفعل الدرامي ، عمّا كان ، وعمّا هو كائن ، وعمّا يجب أن يكون.

إذا كنّا قد عبرنا يوماً إلى العالم .. إذا كنّا قد اجتزنا بحار الدنيا إلى أطراف الأرض ، فما الذي يجعل عدوّنا يعبر إلينا اليوم ، فيضيّق علينا الخناق ؟

لقد جرّبنا أخيراً أن نتجاوز المعادلة الباهظة ، أن نعبر. ولقد نجحت التجربة ، ولو جزئياً، فهل سيتاح لهذا الجيل ، أو الأجيال التالية ، أن تواصل العبور ؟!

إننا نشهد ، في ختام المسرحية ، جعفر بن أبي طالب ، الصحابي الجليل ، والمقدّم عبد العال حلمي ، الضابط المصري ، وهما يتقدمان في سيناء ، هنالك حيث يلتقي الماضي بالحاضر ويهرعان إلى ((مستقبل)) لن يتحقق ، أو يكون أبداً بدون ما حوار فعّال بين الآونات الثلاث بكل ما تتضمنه من قيم وأهداف كان هذا ((الدين)) قد صنعها وهو يملك القدرة على أن يصنعها ، شرط أن تتحقق نيّة ((العبور)) وتغدو فعلاً منظوراً في الزمن والمكان ، كما كانت – يوماً – فعلاً منظوراً في الزمن والمكان.

(٢)

ليس ثمة ((امرأة)) في أيّة من المسرحيات الخمس ، وما ذلك لغياب دور المرأة عن الفعل والصراع في المنظور الايماني .. أبداً .. وإن مجرد الوقوف قليلاً للدفاع عن هذه التهمة لا يبدو من الجد في شيء.

إنما هي ضرورات الالتزام مرة أُخرى ! فلا يعقل في أدب ينتمي إلى الإسلام أن يعرض المرأة على خشبة المسرح !

إذا كان ديننا قد أمرنا أن نغض أبصارنا ، فهل يجيء أدبنا لكي يسوقنا إلى النقيض ؟

ليس ثمة تجزئة في المنظور الإيماني ، فما لا يباح في الحياة المعيشة على امتدادها لا يمكن أن يباح فيما يعكس هذه الحياة من أنواع الفنون .

وبدلاً من الدخول في مناقشة ما يمكن اعتباره من البداهات ، على الأقل بالنسبة للمؤمنين أنفسهم ، دعونا نتساءل – على المستوى الفني الصرف – هل يؤثر غياب المرأة على فنية العمل المسرحي ؟ بعبارة أُخرى .. هل يعدُّ وجودها ((ضرورة)) لا يمكن تجاوزها بحال من الأحوال ؟

لعل هذه المسرحيات التي بين يديّ القارئ تُجيب على السؤال ، ولعل المرء يلحظ كيف أن غياب المرأة ، هو على المسرح ، كما هو ((على الحياة)) ، أحياناً ، لا يجرّد الأفعال من دراميتها بأية حال من الأحوال ..

على العكس ، إن زرع المرأة – بالمجان – في كل عمل مسرحي أو روائي أو سينمائي .. إلخ يعدّ أحياناً إقحاماً على الفعل ، إرغاماً للتجربة على قبول ما لم يكن في تكوينها أساساً.

والهدف واضح .. إنه الانسياق الصرف وراء تقاليد فنية لم تثبت قدسيتها المطلقة ، ولم تناقش معطياتها بالعقل والمنطق ، لكي يتبين أنّها ليست حتمية مقفلة.

وهو – حيناً آخر – تجارة من التجارة يبيع أصحابها ويشترون في عالم الجنس ، ويسوقون – على حساب المرأة وكرامتها – طوابير القرّاء والمشاهدين إلى شبابيك التذاكر وأبواب المكتبات فيما يخرج عن دائرة الضرورات الفنية على أية حال.

لقد رأيت – فيما مضى – عدداً من الأفلام ((الكبيرة)) لمخرجين ((كبار)) لم تلعب فيها المرأة أي دور ، ومع ذلك فقد بلغت تلك الأعمال ، على المستوى الفني ، قمماً شهد لها النظارة والنقاد ، فيما ظلت مئات الأفلام وأُلوفها ، ممّن تعجّ بالنساء ، تزحف ببطء هناك في الأسفل ، لأن المرأة لم يرد لها في معظم الأحيان ، إلاّ أن تكون – ربما على حساب الفن – وسيلة للكسب والانتشار.

إن هـــذه المســـرحيات الخمـــس محاولـــة متواضـــعة ((أخـــرى)) علـــى الطريـــق ، بعد ((المأسورون)) و((معجزة في الضفة الغربية)) و((خمس مسرحيات إسلامية)) و((الشمس والدنس)) و((المغول)) ، وكلّها تخلو من عرض مباشر للمرأة ، إلاّ أنها لا تخلو من حضورها – غير المنظور حسيّاً – لكنه واقع مؤكد ، يستمد ثقله من المكانة الكبيرة، المؤثرة ، التي جاء هذا الدين لكي يرفع المرأة إليها ، بل لكي يُعيدها إليها إذا أردنا الدقة في التعبير .

وإلى الله وحده نتوجه بالأعمال ..

الموصل/ عماد الدين خليل

العبــور

مركب في عرض البحر حيث يبدو إلى اليسار جانب من الشاطئ ، يقف جعفر بن أبي طالب على حافة المركب يحيط به حشد من المهاجرين ..

جعفر الحمد لله ، ها نحن قد ابتعدنا عنهم ، ولا أعتقد أن بمقدورهم الآن اللحاق بنا، لقد كادت أيديهم تصل إلينا قبل أن نضع أقدامنا على هذا المركب .. ماذا يريدون؟ فوالله ليمضينّ هذا الدين بأذرعنا إلى حيث أراد له الله ..

ابن مظعون إنما هي محنة وسنتجاوزها إن شاء الله.

جعفر حقبة ، ونرجع إليهم لكي نصفّي معهم الحساب ..

ابن مظعون أتُرى رسول الله سيلحق بنا ؟

جعفر (مبتسماً) فمن يكون للدعوة إذن ؟ مَن يقف قبالة الوثنية لكي يلوي عنقها ؟

ابن مظعون ولكنني أخشى عليه وعلى أصحابه الذين بقوا معه هناك.

جعفر (وهو ينظر صوب الشاطئ البعيد) لا تخش شيئاً يا أخي ، فلينصرنّ الله دينه، أترى رحلتنا عبر هذا البحر ؟ إنها رحلة كرحلتنا هذه .. عبور عبر المخاطر والعواصف والأنواء صوب الأمن والسلامة .. أنظر .. فها هي الطيور تحوم في البعيد ، ومعنى هذا أننا أوشكنا على إلقاء مراسينا عند الضفاف الموعودة ، إن دعوتنا ستعبر المخاطر هي الأخرى ، وسوف تلقي مراسيها يوماً !

ابن مظعون ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .. ولكن قل يا جعفر .. أتُراه سيفتح لنا صدره؟

جعفر بكل تأكيد ، ما دام رسول الله قد اختاره ملجأً ، فمعنى هذا أنه سيتلقانا بالترحاب.

ابن مظعون ولكنني أخشى أن يؤثروا عليه ، ويغيروا صدره علينا.

جعفر مَن ؟

ابن مظعون بطانته ، وربما .. مَن يدري ؟ قد ترسل قريش مَن يدفعه دفعاً إلى رفضنا ..

جعفر هوِّن عليك يا ابن مظعون ، فإني سأعرف يومها كيف أُريه الحق حقاً والباطل باطلاً ، وسأُقنعه بقبولنا ..

ابن مظعون ما لنا وللهواجس والاحتمالات .. إن مهمتنا الآن هي أن نعبر ، وليفعل الله بعدها ما يشاء ..

جعفر (هامساً) سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين ، وإنّا إلى ربنا لمنقلبون (منادياً) يا عبد الله ، ركِّز بصرك في الأُفق ، فإن لمحت خط الشاطئ فكبّر ثلاثاً ، فإني أُحس أننا قد أوشكنا على الوصول.

عبد الله سمعاً يا ابن عم رسول الله.

(تنفجر على حين غفلة جلبة عنيفة ، وترتفع الأصوات الصارخة ، ويهرع حشد

من الرجال إلى وسط المركب ، ونلمح من بينهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وهو ينادي).

ابن أبي سرح ارموا الكلاليب والحبال على مراكبهم ، واعبروا إليهم .. وقاتلوهم هناك فوالله ما أُريد أن يسمع أمير المؤمنين بأننا قد هزمنا في أول لقاء بحري حاسم مع العدو (يرفع صوته أكثر) انتصروا .. أو موتوا ! (يهرع المقاتلون إلى رمي الحبال والكلاليب ذات اليمين وذات الشمال وترتفع نداءات الله أكبر وهم يعبرون إلى مراكب البيزنطيين ويشتبكون معهم بالخناجر والأيدي والعصيّ والسيوف).

ابن أبي سرح (صارخاً) يا أبناء الذين عبروا إلى الحبشة لكي يحموا دينهم من الفتنة وأنفسهم من الفناء ، قاتلوا عن دينكم ومصيركم ، فوالله لتمضينّ كلمة الله بأذرعكم إلى هدفها ..

أحد المقاتلين (وهو ينزف دماً) لقد عبرت ولله يا ابن أبي سرح مع أبي يوم الهجرة إلى الحبشة فسمعت جعفراً رضي الله عنه يقول قولتك هذه .. انظر إلى البحر لقد أصبح ثبجه دماً !!

ابن أبس سرح وسيقولها من بعدي آخرون .. ولكن بدون هذا الذي تراه يخفق مع زبد البحر، بدون الأيدي التي تقاتل ، والقلوب التي تتفجر باليقين ، والعقول التي تعي جيداً كيف تصنع المصير العظيم ، فلن يكون شيء .. (يصرخ) يا أبناء صحابة رسول الله .. شدّوا ..

المقاتل (وهو يلفظ أنفاسه على حافة المركب) ليس أحب إليّ من الجنة التي تلوح لي إلاّ أن يحييني الله مرة أخرى لكي أواصل القتال .. يا ابن أبي سرح أبلغ أمير المؤمنين عنّي السلام وقل له إن أمة تتمنى الحياة لكي تجابه بها الموت، سوف تعبر بحار العالم كلها لكي تغرس راياتها الخضراء في الموانئ والتخوم.

طارق بن زياد (يتحلّق حوله في المركب حشد من المقاتلين) بلغني أيّها المجاهدون أن لوذريق قد أعدّ لنا جيشاً كبيراً ، وما نحن الآن إلا قلّة ، ولكنني مصمّم على أن أعبر إليه وأُقاتله ، فما هي إلا العزيمة منكم ، والإيمان في قلوبكم حتى نردّه على أدباره .. وما أريد أن ألقي بكم في التهلكة ، ولكنني علمت من تنازع القوم، وضعفهم ، وطمعهم في الدنيا وتهالكهم عليها ما لا يغني عنهم جمعهم الكثير ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله !

أحد المقاتلين أعبر إليهم ، فوالله لا نقول لك إلا ما قاله سعد بن معاذ لرسول الله يوم بدر امض بنا يا رسول الله لما أردت ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا

البحر فخضته لخضناه معك ، ما تخلّف عنك رجل واحد.

مقاتل آخر (صارخاً) اعبر يا ابن زياد ، فما هي والله سوى إحدى اثنتين النصر أو الجنة ..

عبد الرحمن بن بشر والله يا طارق لكأني بأبي قبل سنوات يحدّثني عن ذات الصواري ، ويقول كان أعداء الله أكثر منّا بكثير ، وكانت سفنهم تملأ البحر ، وكنا نحن قلّة من المقاتلين في قلّة من المراكب ، لم نجرّب بعد قتال البحر ، لكن إذن أمير المؤمنين لنا باقتحامه أشعل في قلوبنا نار الشوق إلى المجازفة وكنا نعرف جيداً أن ابن أبي سرح سينتزع النصر بكلمة الله ..

طارق بن زياد سننزل هذه المرة إلى أرضهم ونقاتلهم فيها ، وستجدون أنفسكم بين بحر يمتد وراءكم وعدوّ ينتشر أمامكم ، فليس لكم – ثمة – إلاّ الصدق والصبر.

أحد المقاتلين ارمنا بهم ، وستعرف كيف يكون غضب الله ، ولمن تكون الغلبة ؟

طارق بن زياد سوف تمضي أيام قبل أن نلقي مراسينا على الشاطئ ، وأخشى أن تنطفئ الجمرة في قلوبكم ، فبوقدتها التي تكوي فتحتم نصف العالم .. وبها ستفتحون نصفه الآخر !

أحد المقاتلين لن تكون مياه البحر قادرة على إطفائها .. إن كتاب الله في قلوبنا ، وإن زيته الدرّي يعرف كيف يصنع الجمر المتوقد ويحميه من الخمود والانطفاء.

طارق بن زياد يا جند الله أبشروا فوالله ما هي إلاّ أيام قلائل وتعبرون إلى ما تشتهون النصر أو الجنة!

مسلمة بن عبد الملك (على مركبه ، قبالة القسطنطينية مع حشد من قادته وجنده) أرأيتم أيّها المقاتلون ؟ ها هي الشهور تكر ، والأسابيع تنصرم ، وليس ثمة ما يوحي بالنصر المرتجى .. إن العبور إليهم ، واقتحام أسوارهم لهو المستحيل ، وأنتم ترون بأعينكم قوة تحصينهم ، وشدة منعتهم ، وهم يأكلون ونحن نزداد جوعاً ، ويتدفأون ونحن نعاني الزمهرير .. وها هو الوباء يحاصرنا فيزيدنا ضعفاً على ضعف ..

أحد القادة إنها التهلكة إذن ، ولن يسمح الله سبحانه وتعالى أن نلقي بأيدينا إليها ..

مسلمة ولكن الخليفة يصرّ على مواصلة الحصار ..

القائد وهل يدري الخليفة ما ينزل بنا ؟

مسلمة بعثت إليه برسالة أُفصّل له فيها القول وإني منتظر الجواب ..

أحد الجند (يهرع إلى حيث يقف مسلمة) رسول الخليفة يحمل كتاباً إلى القائد .

الرسول (يقترب من مسلمة ويمد يده بالكتاب) جئت أنعي إليكم الخليفة السابق سليمان

رحمه الله وأحمل كتاب خلفه أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وهو أول ما كتبه بعد تلقّيه البيعة !

مسلمة (يقرأ الكتاب بين الفرح والحزن ثم يلتفت إلى قادته) ها قد جاءكم الفرج .. أمير المؤمنين يأمر بالانسحاب فوراً ، قبل أن يأتي الفناء على مَن تبقّى منّا ، ويقول إنها التهلكة التي حذرنا منها كتاب الله ، وإن دم المسلمين يجب أن يدّخر للجولات القادمة وألاّ يذهب هدراً ..

القادة والجند الحمد لله .. الحمد لله ..

مسلمة (مخاطباً نفسه) والله إنه ليس الخوف من الموت ، ولكنها الحكمة التي تقضي بالانسحاب ، وسوف يأتي اليوم الذي نعبر فيه إليهم .. يقيناً إنه سيأتي .. أتُراني يُكتب لي شرف الإسهام فيه ؟ (تدمع عيناه) ..

أسد بن الفرات (وهو يمدّ بصره شمالاً من مقدمة المركب الذي يقله وحشد كبير من الجند) لن يطول بنا السرى ، فما هي إلاّ بضع ساعات ونكون عند شطآن صقليه بإذن الله!

أحد المقاتلين بارك الله فيك أيّها القائد الفقيه ، لقد عرف الأمير ابن الأغلب كيف يختار قائده للحملة الكبيرة ، إنه يريد أن يبعث روح الجهاد مرة أخرى.

متطوع أندلسيّ عندما سمعت وإخواني أن الفقيه المعروف أسد بن الفرات هو الذي سيقود حملة الفتح قلنا إنها الفرصة التي كنّا ننتظرها من زمن بعيد .. فلنتطوعنّ جهاداً في سبيل الله وابتغاءاً لمرضاته ..

متطوع مغربي لقد رأيت بعيني طلبة العلم وهم يتدفقون على فاس من القرى والأرياف يسألون عن الطريق الذي يوصلهم إلى تونس والوجهة التي ينبغي لهم أن يسلكوها.. وانطلقنا جميعاً لكي نلحق بالحملة قبل أن تفوقتنا الفرصة ، لقد عاد والله زمن الجهاد !

أسد بن الفرات (وهو يلتفت إلى الجند) سنرمي بثقلنا هناك ، وسوف نلقى مقاومة كبيرة في أرض وعرة ، كثيرة الشعاب ، لا نكاد نعرف عنها شيئاً ، ولكنه الشوق إلى إحدى الحسنيين سيمكّننا منهم بإذن الله .. لقد عبر طارق بن زياد البحر إلى برّ الأندلس في قلة من اصحابه ، ولكنه انتصر على عدوه الذي يفوقه عدداً وعدّة، وركز رايات الإسلام هناك ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله ..

أحد القادة لقد تصور العدوّ إذ صدّ الغافقي عن اختراق فرنسا وردّ مسلمة بن عبد الملك عن القسطنطينية أنه أوصد الأبواب أمام الضربات الإسلامية إلى الأبد .. ها نحن أيها الفقيه الجليل نخترق خطوطه من القلب ، ومن يدري ؟ فلعل أوربا ستشهد في

يوم ما تدفق جند الإسلام إلى أراضيها ..

أسد بن الفرات (مبتسماً وهو يربت على كتفه) قل إن شاء الله !

محمد الفاتح (على المركب نفسه تحيط به حاشيته وقادته ، وتبدو بعض أسوار القسطنطينية واستحكاماتها) أيّها المسلمون ، هذا يومكم الذي انتظرتموه طويلاً .. أربعة قرون وأنتم تحلمون به .. إن أرواح أبي أيوب الأنصاري ، ومسلمة بن عبد الملك ، وكل الجنود المجهولين الذين استشهدوا وهم يحاولون العبور إلى حصون أعداء الله .. يطلّون عليكم من فوق ، يشدّون على أيديكم ، ويدعون لكم بالنصر المبين (يرفع يديه إلى السماء ويجأر بالدعاء) اللّهمّ فنصرك الذي وعدت .. اللّهمّ فنصرك الذي وعدت ..

جموع القادة آمين .. آمين ..

محمد الفاتح أسابيع طوال ونحن نشدد قبضتنا عليهم ونضيّق فيهم الخناق ، وها قد آن الأوان لإنزال الضربة الحاسمة .. غداً فجراً ستنطلق مراكبنا ، على بركة الله، لكي تشن الهجوم الأخير وتقتحم الأسوار ..

المقدّم عبد العال (على المركب نفسه يحيط به عدد من الضباط والجند) وكونوا حذرين فإن العدو إذا اكتشف أمرنا ، أحبط عملنا ، إنها الفرصة التي كنّا نحلم بها منذ سبع سنين، والتاريخ لا يمنح فرصه بسهولة ..

أحد الضباط دقائق معدودات وسوف تخبرنا أيّها المقدّم.

ضابط آخر في لحظات التوتر يجثم الزمن على صدر الإنسان بكل ثقله وجبروته ، فلا تكون الدقيقة دقيقة بل ساعة ، وتصير الساعة أياماً وشهوراً.

المقدّم عبد العال على رسلك ، فإنه لم يتبق ثمة ما يفصلنا عن المصير ..

الضابط ليس النصر وحده ما أتحرق شوقاً إليه ، ولكنه الانتقام .. وأُصارحك القول فإن مشاعر قرون طويلة من الكراهية لأعداء الله ، تتركز الآن ، هذه اللحظة ، هنا (يشير إلى قلبه) ..

المقدّم سننطلق بهذا الاتجاه .. أترون ذلك الجرف المطل على الجهة الأُخرى من البحر؟

عبد العال سنرسو هناك ، لكي ما نلبث أن نتسلل إلى أقرب موقع للعدو ونسعى لتدميره ..

الضباط والجنود رهن إشارتك أيها المقدّم ..

المقدّم (ينظر إلى ساعته) فلنتوكل على الله ، لقد حلّت ساعة الصفر، (ينطلق المركب، وما نلبث بعد قليل أن نسمع صوت انفجارات متتالية وتراشق بالأسلحة، ونداءات

الله أكبر.. الله أكبر.. تشق أجواز الفضاء .. وتتداخل الرؤية فيبدو خط بارليف في الأُفق البعيد ، ثم يتغيّر شيئاً فشيئاً لكي يظهر كما لو كان جانباً من حصون القسطنطينية ، وحيناً ثالثاً يتكشف عن ساحل الأندلس، أو قبرص ، أو الحبشة ، أو صقلية .. ثم ما يلبث أن ينكشف الظلام ويبدو الفجر مضيئاً.. والمركب يستقر على الساحل وينزل منه ستة مقاتلين يحمل كلٌّ منهم بندقيته الرشاشة متجهاً صوب إحدى مواقع العدو)..

جعفر بن أبي طالب (وهو يندفع إلى خط بارليف) لحظات وتكفّ الملاحقة ، إذا تمكنّا من سحق رأس الأفعى فلن نخش لدغتها أبداً ..

ابن أبي سرح (مندفعاً بالاتجاه نفسه حاملاً بندقيته الرشاشة صارخاً بالجنود من ورائه) سلّطوا مياه خراطيمكم على هذا الساتر وافتحوا الطريق للمدرّعات ..

طارق بن زياد (وهو يتوقف لحظات على الساحل موجهاً كلماته للجند المتدفقين) البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر (ثم ما يلبث أن يطلق النار وهو يتقدم إلى خط بارليف)..

مسلمة بن عبد الملك (صارخاً) ها قد عدنا يا أعداء الله ، وسوف ندكّ حصونكم على رؤوسكم ، ولن تحميكم إستحكاماتكم من بأسنا ..

محمد الفاتح (وهو يهرع إلى أحد المدافع ويرمي به مواقع العدو) تقدموا ..

أسد بن الفرات (وهو يقفز إلى البرّ ومن وراءه حشود المتطوعين) إذا وضعنا أقدامنا على الأرض ، فلن تستطيع قوة في العالم أن تردّنا إلى البحر مرة أخرى (يصرخ) يا عون الله !

محمد الفاتح (مستمراً على دكّ مواقع العدو بمدفعه الثقيل) تقدموا فإن وعد الله آت ..

المقدّم (يتسلّق الساتر الترابي ومن ورائه جنده وضباطه ، وإذ يوشكون على بلوغ أحد

عبد العال المواقع يمطرونه بالقنابل اليدوية والرصاص ..يخرج ثلاثة ضباط اسرائيليين وعدد من الجند مستسلمين .. وخلال دقائق يتدفق الاسرائيليون من مخابئهم معلنين الاستسلام ، ويهرع ضابط شاب برتبة ملازم إلى إحدى المرتفعات فينزل علماً اسرائيلياً ويمزقه بينما يتقدم ملازم آخر لكي يرفع العلم المصري) الله أكبر (فيردّ من ورائه الجنود والضباط) الله أكبر ..

الملازم ها قد عدنا يا أرضنا الطيبة

المقدّم فلنمض على بركة الله نحررها شبراً .. شبراً..

عبد العال (تتداخل الرؤية مرة أُخرى فنلمح حيناً المهاجرين الأولين وهم يبتعدون عن

الشاطئ موغلين في أرض الحبشة ، ونلمح حيناً آخر جند ابن أبي سرح وهم يندفعون في قبرص ، وطارق بن زياد وهو ينطلق بفرسانه جنوبي إسبانيا ، وأسد بن الفرات ومتطوعيه وهم يجوسون في غابات صقلية متوغلين .. كما نلمح محمد الفاتح وهو يجتاز وكبار قادته إحدى بوّابات القسطنطينية ويخر ساجداً لله .. وبين لحظة وأخرى ترتفع تكبيرات الجند المصريين وهم يتدفقون على طول الساحل صوب الساتر الذي دُمِّرت جوانب منه ، وفتحت الثغرات في جوانب أخرى .. وتصكّ الأسماع نداءات المقاتلين جميعاً ، عبر العصور ، وهم يصرخون الله أكبر .. الله أكبر .. ونلمح جعفر بن أبي طالب يهرع إلى حيث يندفع المقدّم عبد العال حلمي فيشدّ على يديه ويعانقه)..

جعفر مبارك عليكم نصركم أيها الأخ المقدّم .

المقدّم (بتأثّر) منذ قرون بعيدة أعطيتم الإشارة أيّها الصحابي الجليل !

جعفر لسنا وحدنا الذين أشعلنا الضوء على أية حال ..

المقدّم بكل تأكيد .. لقد جاء من بعدكم رجال كِرام كعبد الله بن سعد بن أبي سرح وطارق بن زياد وأسد بن الفرات ومحمد الفاتح ، ولكنكم كنتم أول مَن حاول العبور من أجل تثبيت كلمة الله ورفع رايات الإسلام في مسالك العالم وشعابه..

جعفر (مبتسماً) من عجب أيها الأخ المقدّم أننا عبرنا مغرّبين وها أنتم اليوم تعبرون مشرّقين ، والبحر هو البحر!

المقدّم سيّان أيها الصحابي الجليل ، إنما على المسلم أن يمتلك إرادة العبور وبدونها لن تشتعل مصابيح الهدى في ظلمات العالم ، لن يكون ثمة فجر لليله البهيم.

جعفر (وهو ينظر إلى المدى البعيد) صدقت ، فإنما هي إرادة العبور ، أتدري أيّها الأخ المقدّم ؟ لقد جاء الإسلام لكي يتحرك صوب كلّ مكان من هذا العالم .. يجتاز بحاره وجباله وصحاريه من أجل أن يصل إلى الإنسان .. منذ لحظات الفجر الأولى ، وعبر الساعات الفاصلة التي سبقت معركة بدر وقف أحد إخواننا الكرام وقال لرسول الله بالحرف امضِ يا رسول الله لِما أردت فو الذي بعثك بالحق لو اجتزت بنا هذا البحر فخضته لخضناه ، ما تخلّف عنك رجل واحد !

المقدّم رضي الله تعالى عنك يا ابن معاذ لقد أجبت رسول الله بما كان يتمناه !

جعفر ومن يومها والمسلمون يجتازون الموانع ويخوضون البحار تلبية لنداء سعد بن معاذ ..

المقدّم (مبتسماً) سنكون عند حُسْن ظنكم أيّها الصحابي الجليل !

جعفر أتريد الحق ؟ لقد اهتزّت ثقتنا بعض الشيء ، ولكنكم الآن ترجعونها إلى اليقين، فحمداً لله ..

المقدّم (بتأثر) كل الذي نرجوه هو أن تُتاح لنا الفرصة كاملة للتعبير عن إيماننا العميق .. إيماننا الذي هو امتداد لإيمانكم المتفرّد .. فيض من الينبوع الذي فجّرته كلمات الله ..

جعفر (بتأثر هو الآخر) إنني أُدرك جيداً مخاوفك ، أحزان جيل بأكمله من المسلمين ، فَلْنَدْعُ الله ألاّ تُحرموا فرصة التحقّق النادرة هذه !

المقدّم ولْنَدْعُ الله ألاّ نُطْعَن من الوراء !

جعفر (مشيراً بيده إلى إحدى التحصينات اليهودية البعيدة) هل تدري يا عبد العال ؟ لكأني عائد اللحظة من الحبشة لكي ألتحق بجند رسول الله (عليه السلام) وهم يقتحمون حصون خيبر .. لكأني أسمع صيحة رسول الله ((الله أكبر ، هلكت خيبر ، إنّا إذا نزلنا ساحة قوم فساء صباح المنذرين))!

المقدّم (متفكراً) التاريخ يُعيد نفسه !

جعفر ماذا ؟!

المقدّم لا شيء ، إنما هي عبارة اعتدنا أن نتداولها دون أن نَخْبرها جيداً .. الآن تتكشف لي معانيها على مداها .. كانت لحظة مؤثرة أيّها الصحابي الجليل .. ابن عمك يحتضنك بعد بضع عشرة سنة من الفراق .. يقبّلك وهو يبكي !

جعفر وسمعته يردّد ((والله لا أدري بِمَ أُسرّ ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟)) لقد كانت تلك أسعد لحظة في حياتي ، وقلت في نفسي متى أُجازيك يا رسول الله متى ؟ لقد منحتني الفرح الذي لا يزول بعد سنين طويلة من التغرّب ، والحزن، والانقطاع .. فمتى أُجازيك؟

المقدّم (بتأثر) ولقد جازيته بعد سنة واحدة ، وهرعت إلى التخوم لكي تعبر وإخوانك، بالدعوة ، حدود جزيرة العرب إلى الشمال ، هذه المرة ، فتناوشتك وإياهم سيوف أعداء الله .. أتدري أيّها الصحابي الجليل لقد انطبعت صورتك المتفردة في أذهان المسلمين عبر أربعة عشر قرناً ، وستظل ، وأنت تحمل الراية بيمناك ، تتقدّم بها ، فتقطعها سيوف الروم ، فتحملها بيسراك فتقطع هي الأخرى ، فتتشبّث بها بما تبقّى من ساعِدَيْك ، حتى تشوط في رماح القوم .. لك الله أيّها الصحابي الطيّار إلى الجنة .. لك الله (يبكي) ..

جعفر ما اعتدنا أن نتحدث عن أنفسنا يا عبد العال ، ولكن اسمح لي أن أقول بأن تعشّقنا للشهادة هو الذي مكننا من العبور .. هو الذي جعلنا نجتاز بوّابات

الزمان والمكان .. ونحكم الدنيا !!

المقدّم **(مشيراً إلى وحدة من القوات المصرية وهي تتوغل في سيناء بمواجهة النيران الكثيفة لإحدى تحصينات العدو) ها هم أُولاء يا ابن عم رسول الله ، يركضون إلى الموت مرة أخرى !**

جعفر **(وهو يربت على كتف المقدّم) وسينتصرون بإذن الله !**

المقدّم **آه لو منحونا هذه الفرصة منذ عشر سنين أو عشرين .. كانوا دائماً يرغبون في أن تتملكنا محبة الدنيا وكراهية الموت ..**

جعفر **يعرفونها جيداً ، فلم يمنحكموها .. إنها السرّ .. والكلمة والمفتاح ..**

المقدّم **وأخشى ما أخشاه أيها الصحابي الجليل ..**

جعفر **(مقاطعاً) هيا يا عبد العال لكي نلحق بتلك الوحدة المتقدمة ، فننال معها شرف مقاتلة العدو مرة أُخرى.. إن الكلام لا يجدي نفعاً.. لقد علّمنا رسول الله أن نفعل ولا نتكلم ، أن تكون أفعالنا هي الكلمات !**

المقدّم **(وهو يضع أمشاط الرصاص في رشّاشه) صدقت يا ابن عم رسول الله .. (ينطلق في قلب الصحراء وهو يهتف الله أكبر.. الله أكبر.. فيردّ عليه الجند المتقدمون الله أكبر.. الله أكبر.. وهم يقذفون التحصين اليهودي بوابل من النار).**

– ستار –

التحـــدي

((صالة كازينو صحارى في مدينة ..

تنتشر المناضد الصغيرة المُحاطة بالكراسي ، منتظمة هنا ، مبعثرة هناك ، يجلس عدد من الزبائن متحلّقين على المناضد فرادى ومجتمعين ، بعضهم يلعب النرد أو الشطرنج أو الدومينو، وبعضهم الآخر يقرأ أو يتحدث أو يُعاين المارّة في الشارع المحاذي ، وثمة آخرون أسلموا أنفسهم لتيار عالمهم الباطني يتأمّلون.

يدخل أحد الزبائن وعلى وجهه سيماء الارتياح والسعادة ويجلس على كرسي مجاور لإحدى المناضد الفارغة .. بعد لحظات يتقدم إليه عامل الكازينو (النادل)))

النادل (بابتسامته التقليدية) أهلاً سيّد عدنان .. ماذا تحب أن تشرب ؟

عدنان (مبتسماً هو الآخر) الشاي السادة طبعاً ، ولكني أُحبّ أن تؤخره قليلاً ريثما يجيء عبد الرحمن .. إنه آتٍ بعد دقائق فقد حان موعده .. (يهمّ النادل بمغادرة المكان)..

عدنان لحظة واحدة ، أُحبّ أن تأتيني بالشطرنج فإن بيني وبينه اليوم لقاءً حاسماً .. لقد تحداني أنا الذي لم أُهزم في حياتي قطُّ !!

النادل حاضر.

(يبتعد قليلاً ويعود لكي يضع الشطرنج على المنضدة. يبدأ عدنان بترتيب القطع وإذْ يلتفت قليلاً صوب اليمين تلتقي عيناه برجل يجلس وحيداً إلى المنضدة المجاورة فيخفض له رأسه قليلاً علامة التحية ، فلا يردّ الرجل .. يعود عدنان إلى ترتيب القطع ..)

عدنان (مع نفسه) سأعتمد تكتيكاً جديداً لسحق عبد الرحمن .. سأُكثر من الفراغات أمام الملك لكي أمنحه قدرة أكبر على الحركة ، ولكي أجعله يتنفّس ، وسأجعل الوزير يرمي بثقله كلية منذ اللحظات الأولى .. سأُفاجئه بالخطة وسأقضي عليه في وقت قصير .. لقد تحداني وسيكون ردّي مناسباً.

(يفرك يديه بقدر من الارتياح ويلتفت قليلاً إلى اليمين فيرى الرجل المجاور على جلسته يحدّق فيه .. يعروه شيء من الخجل والارتباك يحاول أن يغطي عليهما بتحيّة أُخرى للرجل ولكن هذا لا يردّ ، فما يكون من عدنان إلاّ أن يبعثر بهدوء قطع الشطرنج لكي يشغل نفسه قليلاً بإعادة ترتيبها ، وبعد أقل من دقيقة يسترق النظر من زاوية عينيه إلى الرجل المجاور فيراه لا يزال يحدّق فيه .. يصفّق عدنان بيديه بشيء من القلق والارتباك ، وبعد لحظات يكون النادل إلى جواره).

النادل نعم.

عدنان الشاي !!

النادل ألا تنتظر حتى يأتي عبد الرحمن ؟

عدنان لا فائدة فقد تأخر عن موعده ، وأنا أُريد أن أشرب الشاي

النادل حاضر

عدنان أُريده سادة ..

النادل أعرف ، لقد قلت ذلك من قبل

عدنان ولكني أُؤكده هذه المرة ، فأنا لا أطيق الشاي الممزوج بالحليب ، إنه يفقده طعمه الحقيقي ، ثم إنه يمثّل وجبة غذاء مشبعة ، وأنا لا يعجبني أن أتناول عشائي مبكراً ..

النادل (بشيء من نفاد الصبر) حاضر.

عدنان اسمع ، لا أُريد أن تضع فيه كمية كبيرة من السكر ، لأنها تفقده طعمه هي الأخرى ..

(يغادر النادل المكان ، وينتهز عدنان فرصة مروره قريباً من المائدة المجاورة فيلقي نظرة خاطفة إلى الرجل .. فإذا به لا يزال يحدّق فيه ، فما يكون من عدنان إلاّ أن يحرّك بعصبية اتجاه كرسيه واضعاً ظهره بمواجهة الرجل .. يدخل عبد الرحمن ويجلس قبالة صديقه دون أن يسلّم).

عبد الرحمن ها قد أعددتّ العدّة ، يبدو أنك تتسرّع الخسارة ، وأنا لا زلت عند كلمتي .. سأهزمك !!

عدنان (بشيء من عدم الارتياح) لن تقدر.

عبد الرحمن لقد درست خططك كافة ، وقد أصبحت مكشوفة لي بحذافيرها. إن الضربات المباغتة لم تعد تُخيفني ..

عدنان لم يهزمني أحدٌ من قبل ..

عبد الرحمن ولكنك ستهزم هذه المرة فلندفئ بطوننا بالشاي أولاً ثم لنبدأ الصراع ، وسأجعل امبراطورك يتخلى مرغماً عن عرشه .. (يضحك) إنها سنوات الشؤم على الأباطرة ، ألا ترى كيف سقط عبرها ثلاثة منهم ؟

عدنان ولكن امبراطوري لن يسقط ، إنه أقوى منهم جميعاً ، فأنا أملك زمام مصيره تماماً ..

عبد الرحمن دعنا من هذا فأنا لا أفهم شيئاً في الفلسفة!

عدنان ولكنك تتحدث في السياسة وهي بشكل من الأشكال نوع من الفلسفة.

عبد الرحمن لم أقرأ في حياتي كتاباً واحداً في الفلسفة ، ولا حتى في السياسة ولكن اللعبة هي التي علّمتني الكثير عن قواعد الثانية وممارساتها !

عدنان ولكنك بحاجة إلى أن تبطّن معلوماتك عن السياسة بالقراءة فيها ..

عبد الرحمن لا داعي لذلك مطلقاً ما دام أن الساسة أنفسهم لا يقرأون. (يجيء النادل حاملاً كوباً واحداً من الشاي فيطلب منه عبد الرحمن كوباً آخر ، وينتهز عدنان الفرصة فيلتفت قليلاً صوب الرجل المجاور فإذا به لا يزال يحدّق فيه ..).

عدنان (ينفخ في الهواء) إنني لا أشعر بالارتياح (يحرّك كرسيه قليلاً).

عبد الرحمن أرجو ألاّ تكون هذه إحدى مظاهر حربك النفسية من أجل هزيمة خصومك ، تتظاهر بعدم الارتياح متخذاً من فتور خصمك ثغرة تنقضّ منها لكي تضرب ضربتك ..

عدنان ثق يا عبد الرحمن أنني لست مرتاحاً هذه المرة .. إنني أُحسّ بشيء من القلق الدفين .. القلق اللعين ..

عبد الرحمن أهي محاولة لبقة للهروب من المجابهة ؟

عدنان أبداً .. إنني مصرٌّ على اللعب.

عبد الرحمن أثمة مشكلة تركتها وراءك في البيت ؟

عدنان المشاكل كثيرة ولكنني اليوم غادرت البيت على أحسن حال.

عبد الرحمن فإذن ، ليس هناك ما يدعو إلى عدم الراحة اللَّهمَّ إلاّ ..

عدنان (مقاطعاً) إنها عادة حقيرة هذه النظرات الطفيلية التي تنصبّ عليك !

عبد الرحمن (لا يفقه شيئاً) !

عدنان في كازينوهات أوربا ونواديها تجلس الساعات الطوال دون أن يتطفل عليك أحد ولو بنظرة خاطفة ولكنهم هنا (يضرب على المنضدة) هنا ..

عبد الرحمن (يتراجع بكرسيه إلى الوراء) ماذا حدث يا عدنان لقد كدت أن تسكب الشاي عليّ ..

عدنان إنه يلاحقني بنظرته منذ أكثر من عشر دقائق ، ماذا يريد ؟ وكيف تكون قلّة الذوق (يرفع صوته قليلاً) كيف تكون قلّة الأدب ؟ إنني أُحسّ كما لو أنه يريد أن يخترق عظام الجمجمة لكي يرى ما يحدث في دماغي ؟

عبد الرحمن عمّ تتحدّث ؟ إنني لا أكاد أفهم شيئاً .. وضّح قليلاً .. فلا يمكننا أن نبدأ اللعبة قبل أن نتجاوز معاً هذا الغبار الذي لا أدري ما الذي دفعك إلى إثارته ..

عدنان (بإشارة خفيفة من يده إلى الوراء وبصوت هامس) انظر إليه ، إلى الرجل المجاور الذي أدرتُ له ظهري ، ألا يزال يحدّق فيّ ؟

عبد الرحمن (يخطف نظرة إلى المنضدة المجاورة) لعلّ الرجل في لحظة من لحظات شروده

الذهني ، ما الذي يجعلك تحكم عليه هذا الحكم القاسي ؟

عدنان أيّ شرود هذا ؟ أتمة شرود يتجاوز الدقائق العشْر ؟ اللَّهمّ إلاّ أن يكون الرجل أبلهاً أو متطفلاً ، وأنا أحتقر هذا النوع من التطفّل (يرفع صوته) أحتقر كل أنواع التطفّل ، إنه اختراق لأمن الآخرين وتجاوز على حرّياتهم .. إنه بتصرّفه هذا يجعلني أحسّ بشيء من القلق وبعد قليل ، ربما ، بشيء من الاختناق ، وسيسلب منّي متعة اللعب ، يقيناً إنه سيسلب منّي متعة اللعب ..

عبد الرحمن وربما متعة الانتصار أيضاً !! (ثم كَمن يتذكر شيئاً) ولكن قل لي ألا يجوز أن يكون الرجل مِن ؟

عدنان (وكأنه قد بوغت) أبداً ، لا يمكن أن يحدث هذا بأية حال من الأحوال .. إنني لم أُمارس في حياتي العامة غير اللعب فعلام يكون هذا الذي تتصوره ؟

عبد الرحمن ولكنك كنت تتحدّث قبل لحظات عن ضرورة المطالعة في السياسة ، وتعميق الوعي بها بمزيد من القراءة !

عدنان هذا ما قلته بعد مجيئ الرجل .. ثم إن القراءة في السياسة لا تعني ممارستها بأية حال من الأحوال ..

عبد الرحمن ألا يجوز أنك كنت قد أعدت القول فيه في أكثر من مناسبة بحيث أصبح بالنسبة لك أشبه بالعقيدة ؟

عدنان عقيدة ؟ إنك تذهب بعيداً يا أبا العوف ، أيّة عقيدة هذه وأنا الذي لم أنتَمِ في حياتي لغير مذهب واحد هو العب والعب والعب حتى يصدقك الناس ! أما تكفيني مشاكلي في البيت والدائرة ؟

عبد الرحمن ولكن اللعب المستمرّ والاندماج فيه إلى حدّ الجنون ربما يقود إلى استنتاج قد لا يجعلك بمنأى عن العواقب !

عدنان كيف ؟ لا يمكن !

عبد الرحمن إنه إعلان ، بطريقة ملتوية ، عن الرفض ، والرفض – وأنت أدرى – جريمة يعاقب عليها القانون !

عدنان مهما يكن من أمر فإن نظرات الرجل التي تحمل هذا القدر المقرف من الاقتحام والتحدّي لا توحي بأنه يمارس المهمة إياها .. إنهم لا ينظرون هكذا ، على العكس إنهم يحاولون ما وسِعَهم الجهد ألاّ تلتقي عيونهم بعيون الآخرين ..

عبد الرحمن في هذه النقطة أنا معك تماماً .. لكن للزمن أحكام !

عدنان لقد أخذ شعوري بالضيق يتزايد ..

عبد الرحمن حاول أن تتغاضى ، ثم إنك بعد قليل ستنغمر في اللعب ، ولن تنتزعك منه أشد العيون قدرة على التوغل والاقتحام !

عدنان (مواصلاً) ومَن يدري فلعلّي سأضطر لمجابهته بالمثل فأصبّ عليه سيلاً من نظراتي القاسية ، وربما إذا أقتضى الأمر ، سيلاً من السُباب .. إنك لا تستطيع أن تعامل الكثير من الناس بالاحترام المطلوب (يرفع صوته) لا بدّ من تجاوز حدود الأدب أحياناً ، انظر إليه مرة أُخرى فلعلّه قد كفّ عن استفزازي .. إنني أُريد أن ألعب ..

عبد الرحمن (يبتسم وهو يلقي نظرة خاطفة أُخرى) لقد كفّ الرجل عن تحدّيك وهيّا لكي تجابه التحدّي الآخر .. سأهزمك !

عدنان (يلتصق أكثر بالمنضدة وينكبّ على رقعة الشطرنج) هيّا ..

عبد الرحمن (وهو يحرّك أحد جنوده) كل الذي أرجوه ألاّ تحتجّ بالمتاعب التي سبّبتها لك نظرات الرجل إذا ما كسبتُ الجولة .. إنني أكره الاحتماء بالأعذار ..

عدنان ومَن قالَ أنك ستكسب بالجولة ؟ عقلك الباطن ؟ رغباتك المكبوتة ؟

عبد الرحمن (يقتل جندياً ويرمي به في الصندوق) لا أعرف شيئاً عن هذه التقسيمات ، إنني أعرف شيئاً واحداً هو الفعل ، الإنجاز .. احذر فوزيرك في خطر !!

عدنان اقتله إذا شئت وسينقلب قتله عليك وبالاً .. إن الفعل ، أو الإنجاز إذا شئت ، لن يتحقق هكذا من الخارج ، لا بدّ من إصرار مسبق على تنفيذه والتحقّق به ، وإذا كان العقل الواعي هو جهاز السيطرة ، فإن العقل الباطن هو المخزن الذي يرفد أفعال الإنسان .. القلعة .. سأُدمّر قلعتك !

عبد الرحمن (وقد فوجئ بالهجوم) لم أنتبه إلى هذه أيّها الثعلب ، ولكن الطريق طويل بعد..

عدنان (يضرب القلعة ويرميها بعنف في الصندوق ، وإذ تسقط بعيداً ينكبّ لالتقاطها فتقع عيناه صدفة على وجه الرجل المجاور فإذا به لا يزال يحدّق فيه، يعود إلى جلسته ممتقع الوجه ، منفعلاً) لقد شرختُ دفاعك وسوف أضربك من الخلف !

عبد الرحمن (بروح انتقامية ولهجة ذات مغزى) لن يقدر على الضرب في الخطوط الخلفية مَن كان ظهره مكشوفاً للخصم .. احْمِ ظهرك أولاً ..

عدنان (بانفعال) لن تؤثر هذه التّرهات على مستوى لعبي ، ومع ذلك سأضطر إذا اقتضى الأمر أن أحمي ظهري .. لقد جاوز الأمر كل حدود المعقول (يلتفت إلى الرجل التفاتة كاملة ويرميه بنظرة طويلة قاسية دون أن يطرف للرجل جفن، فيعود عدنان إلى جلسته أكثر انفعالاً) العب !

عبد الرحمن (يحرّك إحدى قطعه) فعلاً ، أنا لم أرَ في حياتي ما يفوق هذا الرجل في صلافته !

عدنان سأتجاوز من أجلك الاكتراث به حتى تنتهي الجولة وسأُصفّي حسابي معه حينذاك، لا بدّ من تصفية الحساب (يحرّك وزيره حركة سريعة) .. ولأبدأ بك أولاً ..

عبد الرحمن (بعد نظرة متمعِّنة في الرقعة يفرك يديه ارتياحاً) ها قد سقط الفيل ، سأنحره كما تُنحر النعاج (يرمي به جانباً) وافعل ما بدأ لك !

عدنان (كمن أسقط في يده) لا بأس .. لا بأس .. فيلٌ بجندي ، ولكن حَذَار فإني عندما أُمارس الانتقام أذهب إلى حدّه الأقصى .. إن طعمه في الفم أحلى من العسل المصفّى .. الوزير !

عبد الرحمن (يُبعِد وزيره بحركة ذكية) إنني لأستمتع حقاً عندما أُنازل أُناساً مثلك يلعبون بكل جوارحهم ، صحيح أن الخسارة قد تُخرِجهم أحياناً عن جادة الصواب فتسمع منهم ما يسرّك وما لا يسرّك ، إلاّ أن هذا الاندماج الكامل في اللعب يعطيه متعته الحقيقية ..

عدنان أتدري ، إنني أهرب بحمى اللعب هذه ، من عشرات الأنواع من الحمى التي تطاردني في الليل والنهار ، في البيت والدائرة والشارع ، إن العصر يسحقنا يا عبد الرحمن ، يفركنا بيديه القاسيتين ككائنات لا حول لها ولا قوة .. إننا ضائعون مطاردون ، عشرون عاماً والكبت الملعون يسلخ جلدي بسياطه الملتهبة، يحرق جسدي حتى آخر خلية فيه .. وعندما أهرب إلى الشارع أكاد أجن وأنا أرى إلى عشرات المثيرات والمغريات ، حيثما ألتفت وأنى وضعت خُطايَ لا أرى إلا ما يُشعِل الشهوة في كياني ، وأتمنى لو أصرخ ، لو أركض بحثاً عن ملجأ آوي إليه .. وهيهات ..

عبد الرحمن (وهو يزيح جندياً من طريقه) ولماذا لم تتزوج مبكراً و تتجاوز هذا كله ؟

عدنان (يضحك) أتزوّج ؟ ولماذا لم تتزوج أنت مبكراً ؟ ألست لحماً ودماً مثلي ؟ أم تريد أن تبدو أمام الآخرين ملاكاً ؟ فهل بمقدورك أن تحتمي من الله ؟

عبد الرحمن لقد أثار الرجل أعصابك .. هدئ من روعك يا أخي ، فأنا لم أكذب عليك مرة واحدة في حياتي ، أتدري لماذا لم أتزوج مبكراً ؟

عدنان التقاليد الملعونة وقيود المجتمع التي ما أنزل الله بها من سلطان ..

عبد الرحمن بالضبط ..

عدنان (وهو يُحكِم الحصار بحصانه على الفيل) فلماذا تطلب منّي أن أكسر هذا كله.. هل كان بمقدورك ذلك ؟ الفيل !

عبد الرحمن لا بأس .. ولكن هل أنقذنا الزواج أخيراً من المطاردة ؟

عدنان أتسألني أنا ؟

عبد الرحمن (بخبث) كلا .. إنما هو سؤال موجّه إلى الرجل الذي يبدو أنه قد عشقك!

عدنان (يلتفت بحركة لا إرادية إلى الرجل الذي لا يزال يحدّق فيه) بصراحة ، لم يفعل الزواج شيئاً فالمشاكل التي انفجرت في أعقابه كثيرة .

عبد الرحمن (بحزن) الروتين والهموم المعاشية ..

عدنان لا تهمّني هذه ، لقد اعتدت عليها .. ولكن مواقف محرجة كهذه تقتلني! الإحساس الخائف القلق بأن هناك مَن يلاحقني فيسلبني آخر ما تبقّى لي الأمان .. إنني أشعر بأن هناك مَن يعرِّيني رغماً عني. (يرفع صوته) ملعونة أنتِ أيتها الخنازير!! (يخفض صوته) إنني آتي إلى هنا هروباً من متاعبي كلها ولذا تراني أدفن نفسي في حمى اللعب إلى حدّ الجنون ، فكأنني كمَن يحتمي من النار بالنار ولكن شتّان! ولعلّ هذا هو السبب الذي يجعلني أتشبث بالنصر وأعضّ عليه بالنواجذ فماذا لو لحقتني الخسائر هنا أيضاً ؟ ها هي قلعتك الأُخرى تسقط ، فإلى لعنة الله (يرمي بها في الصندوق .. ينتهز الفرصة ويخطف نظرة إلى الرجل المجاور فإذا به لا يزال يحدّق فيه) لا حول ولا قوة إلاّ بالله !

عبد الرحمن (وهو يعاني مرارة سقوط قلعته الثانية) ماذا ؟

عدنان هذا الخنزير سيضطرني إلى سلوك ما لا تحمد عقباه !!

عبد الرحمن (ينظر إلى الرجل) حقاً إنه يحدّق فيك كما لو كان يريد افتراسك ، إنه قد تجاوز التطفّل ، وحتى قلّة الذوق ، إلى نوع من الاعتداء ، ولا أدري إن كان بمقدورك أن تستجيب للتحديَيْن معاً .. العب ..

عدنان (ممتقع الوجه غاضباً) سألعب ولن أدعه يهزمني (يحرّك الوزير بسرعة)..

عبد الرحمن (يتمعن في الرقعة قليلاً ثم يصرخ) ها قد قتل الوزير ولن يكون بمقدورك إنقاذه هذه المرة .. لقد سحقتك يا عدنان ..

عدنان (بصوت متيبس) لن ادعه يهزمني .. ماذا ؟ الوزير ؟ اقتله إذا شئت ولكنك ستخسر حصانيك ..

عبد الرحمن (وهو يرمي بالوزير بتشفٍّ في الصندوق) لقد انتهى عهد القتال على الخيول، اقتلهما فلا حاجة لي بهما ..

عدنان ولكن الكمائن لا يمكن تنفيذها بدونهما .. ستضطر للقتال على المكشوف ..

عبد الرحمن ما دام وزيرك قد سقط فلا داعي لنصب الكمائن .. انظر لقد أصبحت هزيمتك أمراً مؤكداً ..

عدنان عِش في وهمك .. أما أنا فسأُفاجئك بكل فنون اللعب المعروفة حتى آخر لحظة .. وسأعرف كيف أُدافع عن سمعتي ..

عبد الرحمن (محاولاً إثارته مرة أُخرى) تدافع عن سمعتك ولا تدافع عن كرامتك ؟ حقاً إن أمرك لغريب !

عدنان (وقد تذكّر) ستعرف كيف أُدافع عن كرامتي ، ولكن ليس قبل أن أهزمك (يلتفت بعنف إلى الرجل المجاور ويصوِّب إليه نظرات خاطفة كمن يريد أن يلتهمه ، والرجل على وضعه تماماً يحدّق في عدنان بالنظرات نفسها دون أن يطرف له جفن، يعود عدنان لمواصلة اللعب) أتُريد أن نؤجّل اللعبة ريثما أُصفي حسابي معه؟

عبد الرحمن (بمكر) لن اوافق على ذلك أبداً ، ولن أسمح لأحد بأن يضيّع عليّ فرصة الانتصار الذي أصبح وشيكاً ، إن الخطة التي تبلورت في ذهني الآن ستضيع وتلتبس لأي تأخير في اللعب (يحرك فيله لكي يُحكم الحصار) ..

عدنان لن تقدر عليّ ..

عبد الرحمن وها هو ذا الفيل الآخر !

عدنان (بانفعال) الخنزير !

عبد الرحمن (يحرّك أحد جنوده) هيّا أنقذ نفسك من الهزيمة إن استطعت (يفرك يديه بفرح ويهتزّ على كرسيّه ضاحكاً).

عدنان (يلقي نظرة حزينة على الرقعة) .. هذه أوّل مرة تهزمني فيها .. لقد كسبت التحدّي.. وأنا لا يعجبني أن أحتمي بالأعذار .. لم أحتم بها يوماً واحداً في حياتي، ولكنني أُحبّ أن أَقول لك بأن الإنسان لا يمكن أن يقاتل على جبهتين في وقت واحد .. كان لابدّ أن أنسحب من إحداهما لكي أتفرغ للأُخرى !

عبد الرحمن لن أقبل منك هذا التبرير على أية حال .. لقد هُزمت وكفى ..

عدنان إنني أعترف بهزيمتي ، وإنه ليسعدني أن تهزمني ، أنت (يرفع صوته) ولكني لن أسمح لهذا الخنزير ..

عبد الرحمن هوّن عليك ، وخيرٌ لنا أن نغادر المكان ، فليس لديّ أو لديك استعداد لاستقبال مشاكل أُخرى ..

عدنان (يضحك) أترك المكان هكذا ؟ وأُعلن عن استسلامي بالبساطة التي تتصورها؟ منذ أكثر من نصف ساعة وهو يصوب عليّ نظراته اللئيمة كسهام ملأى بالسم الأصفر .. منذ أكثر من نصف ساعة وهو يتحدّاني .. نفس النظرات المثيرة ، المسمومة ،

كان يصليني بها على هذا الكرسي .. لم تكن يا عبد الرحمن في حمى لعبك تحسّ بما كنت أُعانيه .. لقد هممت أكثر من مرة بأن أقترب منه وأصفعه ..

عبد الرحمن لحظة واحدة (ينادي على النادل فيتقدم هذا إليه فيسأله بصوت هامس) أتعرف هذا الرجل الذي يجلس إلى جوارنا ؟

النادل (يلقي نظرة سريعة) لم يسبق له أن جاء إلى هذا الكازينو.

عدنان عجيب !

عبد الرحمن ومنذ متى جاء هذا اليوم ؟

النادل لا أتذكر بالضبط ، كنت أعدّ الشاي لعدد من الزبائن في المطبخ ، فلما خرجت مررت من هذا المكان فوجدته جالساً ..

عبد الرحمن وهل طلب منك شيئاً ؟ هل قال لك شيئاً ؟

النادل لم يطلب أيّ شيء ، ولم يقل شيئاً ..

عدنان لم يطلب أيّ شيء ؟ أجاء لكي يتسلّى بتعذيبي ؟

عبد الرحمن (ضاحكاً) بل أنت الذي جئت لكي تسلّيه ، فكنت كمن سعى إلى حتفه بظلفه ..

عدنان (بعصبية) سترى الآن مَن منّا سيسلّي الآخر (يدير الكرسي الذي يجلس عليه فيصبح بمواجهة الرجل ويبدأ التحديق فيه) (تمر عدّة دقائق والرجلان يحدّق أحدهما في الآخر ، بينما يقف عبد الرحمن والنادل والدهشة تكسو ملامح وجهيهما).

عدنان ها أنا ذا قد تفرغت لك ، فأنفث ما شئت من سمّك الأصفر (يعضّ على مخارج الكلمات) إنني أتحدّاك !!

الرجل (لا يجيب بشيء).

عدنان (يزحف بكرسيه مقترباً أكثر من الرجل) هكذا إذن ؟ عندما أُدير لك ظهري تصليني بنظراتك الكاوية ، وعندما أقف قبالتك وأُعرب عن استعدادي لمجابهتك، لا تجيب بشيء .. جبان !

الرجل (مستمراً على التحديق فيه دون أن ينبس بشيء).

عدنان (وهو يدفع الكرسي أكثر باتجاه الرجل) لقد قادتني وقاحتك إلى الخسارة ، وأنا لم أعتد الهزيمة بسهولة ، ولن أنهزم مرتين في يوم واحد ، أتسمعني ؟ لن أسمح لك بأن تهزمني مرتين (يصكّ على أسنانه) أيّها الحقير !

عبد الرحمن (صارخاً) عدنان !

(يغادر النادل المكان ليُداري عدداً من الزبائن في زاوية بعيدة من الكازينو)

عدنان أترى ؟ إنـه لا يردّ عليّ .. هذا السافل ، ولكنـه لا يزال يحدّق فيّ ، (صرخ) أيّها الشؤم الذي انقضّ عليّ من المجهول ، قل لي ماذا تريد ؟

الرجل (مستمراً على التحديق) ..

عبد الرحمن (يتقدم لكي يجرّ عدنان بعيداً عن الرجل) لقد حان موعد مغادرتنا المكان ، هيّا ، لا داعي لأن تحرق أعصابك .. فلعلّ الرجل يكون .. وتخسر اللعبة هذه المرة أيضاَ!!

عدنان لـيكن مـا يكـون ولكننـي لـن أدعـه يهزمنـي (يصرخ) لقد قبِلتُ التحدّي أيّها الحقير فافعل ما بدأ لك (ينهض واقفاً على بعد خطوة من الرجل).

الرجل (مستمراً على التحديق).

عدنان ها أنت ايّها القذر لا تستطيع مجابهتي .. حشرة وسوف أسحقها بقدمي .. تف (يبصق في وجهه) ..

عبد الرحمن عدنان .. لا تتجاوز حدود اللياقة ..

عدنان (يشير باحتقار إلى الرجل ماطّاً شفتيه) أترى ؟ إنـه أجبن من أن يردّ عليّ .. ألم أقل لك إنـه لـم يهزمنـي .. (ينحنـي عليـه ويأخذ بخناقه) أيّها الـ (ما تلبث ملامح الانتصار أن تتحول فجأة إلى رعب يغمر وجـه عدنان ، ترتعش يداه ويغدو وجهه مصفرّاً بلون الذهب ، وإذ يزداد ارتخاء يديه يسقط الرجل على الأرض) ..

عدنان (بصوت مرتجف) عبد الرحمن .. إن الرجل ميّت .. لقد كان ميتاً .. لقد بصقت في وجه رجل ميت (يتهاوى على الكرسي نفسه الذي كان الرجل يجلس عليه .. بينما يجتمع حوله بعض الزبائن ما يلبث عددهم أن يزداد حتى يحجب المنظر تماماً ..).

– ستار –

التمثيل

((معبد النمرود الآشوري جنوب الموصل ، وعلى شماله امتدت الروابي الخضر التي تكسوها أعشاب الربيع الكثيفة وتتخللها زهور الصفّير البرية والبيبون ، والنفل ذو الألوان الأرجوانية والبيضاء ، وعلى الحافات تتفجر باقات من شقائق النعمان بلون الدم .. الساعة العاشرة من صباح الجمعة الخامس عشر من آذار عام ١٩٦٧))..

المشهد الأول

((يتوقف باص متوسط وينزل منه ثمانية أو تسعة من طلبة الثانوية ، ينتشرون في المكان على غير هدى وهم يتقافزون ويتصايحون ..)).

أحدهم هلّم إلّي ، هذا هو المكان المناسب .. لنضع متاعنا هنا ..

آخر (وهو يتوغل شمالاً) لنبعد قليلاً عن المعبد الكئيب .. لقد غادرنا دُورنا لكي نتمتع بالطبيعة ونستنشق الهواء الطلق ، لم نأت لكي نلتصق كالعناكب بجدران مقبرة آشورية عتيقة !

ثالث أنا معك في هذا .. إننا جئنا لكي نحيا لا لكي نموت .. تعساً للآثار القديمة ، إنني أحتقرها !

رابع لا داعي للنقاش أيّها الزملاء ، فأرض الله واسعة ويمكننا اختيار المكان المناسب .. أترون إلى تلك الربوة المرتفعة ؟

خامس (وهو يطبطب بالكرة على الأرض) لقد جئنا في وقت مناسب تماماً ، العوائل والمدارس وطلبة الجامعة لم يغزوا المكان بعد ، علينا أن نسرع قليلاً لاختيار الموقع المناسب ..

منذر (الذي يبدو أكبرهم عمراً والذي ترتسم على وجهه تعابير حادّة وملامح متجهمة ، يتقدم لكي ينتزع الكرة من حمدون الذي كان يطبطب بها في هدوء ، يثبتها على الأرض ثم يطوح بها بعيداً بقدمه اليمنى) أنا الذي سأختار المكان ، ليس لأحد منكم أن يجادل في هذه المسألة !

حمدون (بانزعاج) ليس هكذا يا منذر ، ليست هذه كرة قدم وأنت أدرى بذلك .. إنها كرة طائرة ..

منذر (غير مكترث له) لنبعد قليلاً عن هذا المعبد ، إن هواءه العفن يمنعني من التنفس .. تف (يبصق فيتطاير شيء من الرذاذ على وجه حمدون !) ..

حمدون (يمسح وجهه بظاهر كفه) لم نبدأ سفرتنا بعد يا منذر.

منذر عجيب !

حمدون جئنا لكي نتسلى ونرتاح ، لا لنحطّم أعصابنا !

منذر (يضحك بازدراء) يا لهذه الأعصاب الهشة .. أهكذا تتحطم بسرعة ؟ متى ستصبحون رجالاً ؟

حمدون نحن رجال (يخفض صوته) ولكننا نملك الأدب !

منذر ماذا ؟

حمدون لا شيء ..

منذر جبان .. أعرفك جيداً ..

سعد (وقد سمع شيئاً مما يدور بينهما) أهذا وقت الشجار ؟ لم نضع متاعنا بعد ، ما الذي سيحدث بعد ساعة أو ساعتين .. أرجوكما ، كفا عن هذا ..

حمدون لا عليك يا سعد ، سأكف ، ولن أسمح لعواطفنا أن تعكّر علينا صفاء هذا اليوم الجميل ..

منذر (يركض صوب الرابية المرتفعة التي تطل حافتها الغربية على سهل واسع يمتد حتى يعانق نهر دجلة في مكان ليس ببعيد) هنا أيّها الزملاء ، لا تضيّعوا وقتنا في التردّد .. هاتوا المتاع !!

(يهرع الطلبة إلى الباص وبين لحظة وأخرى يخرج أحدهم وهو يحمل زنبيلاً أو كيساً ملفوفاً أو بساطاً .. يتجهون حيث يقف منذر)..

حمدون هل رأيت ما كان يفعل ؟

سعد (وهو يربّت على كتفه) الولد هذه طبيعته ، عصبي المزاج أكثر مما يجب.

حمدون لا ليس هذا بالضبط .

سعد لا أعتقد أن هناك شيئاً آخر ..

حمدون إنك لا تعرفه جيداً ، إنني أجلس معه في الصفّ على رحلة واحدة منذ سنتين .. إنه يحب الزعامة ، يريد أن يكون زعيماً ، وعندما اختير فخري بدلاً منه مراقباً للصفّ ، أقام الدنيا وأقعدها ..

سعد دعنا من هذا وهلّم لمعاونة الآخرين ..

حمدون إننا أصدقاء يا سعد .. لا تخشَ علينا من هذه الناحية ، ولكنه أهانني مرتين!

سعد يا رجل ، لا تبالغ في أوهامك ، قد يكون غير متعمد في تصرفاته ، إنني أعرفه مثلك، قلبه طيب لا ينطوي على ذرّة من الخبث.

حمدون ولكنه أناني .. معتّدٌ بذاته أكثر مما يجب !

سعد هل تنسى فارق العمر ، إنه يكبرنا جميعاً بعامين وربما أكثر .. لقد شبع رسوباً، إنه

في اعتقادي يستحق العطف ..

حمدون العطف ؟ (يضحك بمرارة) ..

سعد (بشيء من نفاد الصبر) دعنا من العطف ، وقل لي ماذا تريد بالضبط ؟

حمدون لقد أهانني مرتين !

سعد يعني ؟

حمدون يعني أنني لن أغفرها له (يعضّ على شفته) سيعرف مَن منّا الرجل.

سعد لا تحرق أعصابك هكذا .. لقد جئنا لكي نرتاح .. إنني أنصَحك (يبتعد صوب الربوة حيث بقية الطلبة)

حمدون (يدسّ يده في جيب بنطاله الخلفي ويستخرج قنينة صغيرة ملأى بالعرق المحلّي الأبيض (المستكي) يخضّها ثم يفتح غطاءها ويصبّ شيئاً منها في فمه) آه .. حاد هذا المستكي اللعين ، إنه يهرس المعدة ، لكن لا بأس ، فكل شيء له ثمن (يُعيد الغطاء الى القنينة ويضعها في جيبه الخلفي ثانية) لستُ رجلاً يا منذر.. ها؟

منذر (فوق الربوة لسعد وهما يحفران قليلاً لوضع الفحم الذي سيشوى عليه) ماذا كان يقول عنّي ؟

سعد (متغافلاً) مَن؟

منذر حمدون طبعاً ..

سعد عنك أنت ؟

منذر ومَن يكون غيري؟

سعد أبداً ، لقد كنّا نتحدث عن جمال المكان ، كان رأينا أن نبعد قليلاً عن أسوار هذا المعبد الكالح ، إذا أردنا أن نتمتع بالربيع حقاً (ينظر الى السماء) إنه يوم مشرق، ليس ثمة ما يتهدّدنا بالمطر أو الريح فعلامَ الالتصاق بجدران النمرود ؟ هذه المقبرة المتعفنة !

منذر ماذا كان يقول عني ؟!

سعد كنت أعاتبه على إثارة المشاحنات التافهة في يوم كهذا .. وما ..

منذر (مقاطعاً) فقال لك إنني أنا السبب .. أليس كذلك ؟

سعد ليس .. هكذا .. بالضبط .. على أيّة حال إنه حكى لي عن زمالتكما عبر أكثر من سنتين .. عن جلوسكما المشترك على رحلة واحدة!

منذر لقد استخلصته من بين سائر الطلبة ليكون صديقاً لي .. ثمة نوع من الانسجام عمّق هذه الصداقة .. فضلاً عن صلة قرابة بعيدة من جهة الأُم تربطني به .. لكن

مشكلته أنه مدلل أكثر مما يجب .. انني أعرفه جيداً .. لقد أفسده أبواه .. رخو أكثر من اللازم !!

سعد لم يذكرك الولد بسوء ، فعلام تقسو عليه هكذا ؟

منذر قد تضحك يا سعد .. إذا عرفت أن رَكْلي لكُرته الأنيقة أثار أعصابه !

سعد يعني أنك لم تُسمِعه كلمة ما ؟

منذر أبداً ..

سعد يعني أنك لم تجرح إحساسه بتعليق أو إشارة ما ؟

منذر (متفكِّراً) أوه .. لقد كنت أُطلق كلمة عامة ، لم أكن أعنيه هو بالذات .. تساءلت متى ستصبحون رجالاً ؟

سعد (وهو يفرغ كيس الفحم في الحفرة الصغيرة) ولكنها كلمة تجرح الإحساس يا منذر ..

منذر (يمدّ بوزه بازدراء) أرجو ألاّ تكون مثله هشّاً !

سعد أنـا ؟!

منذر ثم ما هذا الإحساس الرقيق جداً ؟ كلمة عابرة تُقال فإذا به ينزف دماً !! على أية حال فليس هذا هو القصد ، إنما القصد أنني سمعته يدمدم بكلمات لم أتبيّنها جيداً، فلما سألته عنها تراجع قائلاً .. لا شيء ..

سعد وسمعتك تتهمه بالجبن ..

منذر وماذا في ذلك ؟

سعد (وهو يصبّ شيئاً من النفط على الفحم ويشعله) لا تكن قاسياً الى هذا الحد!

منذر إذا أردت الحقيقة فإن كل واحد منّا يرى الحياة من منظوره الخاص .. قد أراها أنا سوداء ، وقد تراها أنت خضراء ، وقد يراها هو حمراء !

سعد ماذا تقصد ؟

منذر يعني أنني أعتبر ما قلته له أمراً طبيعياً ، شيئاً تافهاً لا يستحق هذا كله ، أما هو فقد نظر إليّ من زاوية عجزه وجبنه فتصورني كما لو كنت أتحكم به .. أهينه.. أنا لا أعرف كيف أُعبّر عن أفكاري بالضبط أردت .. أن أقول .. لعله تصورني أُمارس البطولة .. الرجولة .. على حسابه

سعد (يناوله ورقة من المقوى السميك) هفّ .. حرّك الهواء كي يشتعل الفحم بسرعة .. إن الجوع بدأ يداعبنا .. أنا لا أُريدكما تعقّدان المسألة الى هذا الحدّ ..

منذر (وهو يحرّك الورقة ذات اليمين وذات الشمال فيزداد الجمر تألقاً) بقدر ما يتعلق الأمر بي فإنني أكره التعقيد .. لكن ما أفعل إذا كان هو معقداً ؟

سعد (وهو يغسل يديه من آثار الفحم) باختصار أُريدكما أن تتصالحا !

منذر من أجل خاطرك وخاطر هذه السفرة التي لم نتذوقها بعد .. ومن أجل الشِواء اللذيذ ، والخسّ ، والشاي ، والبرتقال .. واللعب (يرفع صوته) أُعرب عن استعدادي الكامل للمصالحة !

سعد (يقفز فرحاً ويقبّله مرتين) رجل .. والله يا منذر !

منذر سأكون أنانياً لو تسبّبتُ في تعكير صفوكم في هذا اليوم الجميل

سعد (وهو ينحدر بخفّة مبتعداً عن الربوة) كنت أعرف هذا جيداً .. أعرف أن صداقتنا لا يمكن أن يعكّرها شيء (ينادي) حمدون .. (يقف قليلاً وهو يلهث، يمدّ بصره هنا وهناك عبر السهل الأخضر ، ينادي مرة أُخرى) حمدون ..

حمدون (وهو يتكئ ثملاً على أحد جدران المعبد الآشوري) مَن ؟ سعد !

سعد (يلحظه فيهرع إليه) ألم أقل لك ؟ إنه طيب القلب ولا يعني بكلماته شيئاً ..

حمدون (على وضعه) مَن ؟

سعد صديقك منذر .. جارك العزيز في الصف !

حمدون (بإعياء) ماذا يريد هذه المرة ؟

سعد (ينظر إليه بدهشة) ما هذا يا حمدون ؟ ماذا كان اتفّاقنا يوم أمس

حمدون لستُ رجلاً أليس كذلك ؟ اذهب فقل له إنني جبان كما أرادني ، ولكنني سأهزمه .. سأُلقنه درساً .. سيعرف مَن منّا الرجل !

سعد حمدون .. لا تسمح لهذه الملعونة أن تلعب برأسك (يقرّب أنفه من فمه) بف !! عرق مستكيّ أليس كذلك ؟ إنه قوي بأكثر مما يجب ما الذي ورّطك به؟

حمدون (بنبرات ثملة ، متقطعة) الرجل .. الشجاع .. الذي .. يجلس ..هناك ..

سعد منذر ؟

حمدون (وهو يطوّح بيده اليمنى في الهواء) دعني .. أرجوك .. فإنني مرتاح هنا .. لا أُريد أن يزعجني أحد .. أتفهمني ؟

سعد ولكنه أعرب عن استعداده لمصالحتك .. ثم .. أرجوك.. لنبدأ صفحة جديدة انظر إلى هناك ، لقد أصبحت النار جاهزة .. ولا أظنك بأقل شوقاً لالتهام اللحم والمعلاق .. قم !

حمدون يمكن أن يأتي هو إلى هنا. وحينذاك قد أغفر له زلّته .. وقد أُوافق على مصالحته ..

سعد (ساخراً) لماذا لا نختار لكما منطقة محايدة لكي يتم فيها الصلح ؟ ما هي شروطك

أيّها الأُستاذ ؟! أُفّ لشدّ ما تزعجني رائحة المستكيّ هذه !

(يغادر المكان عائداً إلى حيث يجلس منذر وهو يضع قطع اللحم والمعلاق في الأشياش ويرشّ عليها شيئاً من الملح تهيئة لشوائها) ..

منذر (مبتسماً) ها ؟!

سعد (وهو يلهث) لقد شرب المسكين .. لماذا تتولى الشِواء وحدك ؟! المفروض أن يساعدك الآخرون ..

منذر دعهم .. إنهم يلعبون الكرة الطائرة هناك عند أسفل الربوة .. أما أنا فقد فاتني زمن اللعب .. لقد أصبحت شيخاً (يضحك) ثم إنني ألتذّ في أعمال الشِواء ، إنها تزيدني شهية .. ماذا قلت ؟ شرب ؟

سعد للأسف يا منذر .. لقد خالف ما اتفقنا عليه !

منذر بيرة .. أم ؟

سعد مستكيّ .. وهو الآن لا يكاد يعي شيئاً .. إنه يهذي ، وهو إذا أردت الحق يستحق الشفقة !

منذر (ضاحكاً) وماذا عن محاولات الأمين العام للأُمم المتحدة لتحقيق الصلح ؟

سعد أرجو أن تُعينني في إطفاء هذه الفتنة التافهة التي أثرتُماها .. أخشى أن يشرب أكثر فيشعل سفرتنا هذه !

منذر (بدهشة) يشرب أكثر ؟ وهل لي أن أُوقفه عن ذلك ؟

سعد ربما .. لقد لجأ إليها ، حسبما أعتقد ، هروباً من شيء يضيق الخناق عليه.. لعلّه الإحساس بالهزيمة .. لعلّه الرغبة في التعويض ..

منذر دعنا من هذه العبارات التي لا أفهمها ، وقل لي هل تريدني أن آتي معك لمصالحته؟

سعد تلك نقطة أُخرى تسجلها لحسابك أيّها الصديق المخلص

منذر (ينهض قائماً) قلها يا أخي !! فأنا من جهتي مستعد لأيّ شيء ، إلاّ أن ندخّن على صفاء هذا اليوم المشرق .. هيا (ينزلان إلى حيث يستلقي حمدون بجوار الجدار) ..

منذر (مبتسماً وبلهجة مسرحية) ها أنا ذا قد جئتك يا صديقي لأُعلن عن توبتي ، ولأطلب منك الصفح والغفران (يلتفت إلى سعد) ألسنا جميعاً أعضاء في فرقة الثانوية التمثيلية .. ها قد حان الاوان للبدء بالتمثيل !

حمدون (وقد أفاق قليلاً من تأثير الخمر ، ينهض بصعوبة) لا أكنّ لك في قلبي إلاّ المحبّة يا منذر (يتقدم اليه مترنحاً) لم يحدث شيء بيننا يستحق العتاب .. قد تكون كلمة أو اثنتان .. لست رجلاً أو جباناً .. لا أدري ولكنها كلمات لا تؤذي كثيراً .. هات

خدك لكي أُقبّلك يا جاري العزيز (يحتضن أحدهما الآخر ويتعانقان) ..

سعد (وهو يصفّق ، وبحركة مسرحية) ها قد انتهى المشهد الأول أيتها السيدات .. أيّها السادة .. فهلمّ إلى المشهد الثاني !

المشهد الثاني

((الربوة نفسها وقد مدّت في جانب منها البسط على شكل نصف دائرة انتشر عليها الطلبة بعضهم جالس وبعضهم الآخر مستلق .. ينهض منذر فيقف وسط الدائرة قبالة زملائه)) ..

منذر لقد لعبتم أيّها الزملاء حتى شبعتم لعباً ، ثم انقضضنا على الشواء فمحوناه .. لم يبق في معدة أيّ واحد منّا متسع لشيء .. أكلنا الفاكهة وشربنا الشاي .. ماذا ترون لو انتهزنا الفرصة فقدّمنا مشهداً تمثيلياً مرتجلاً على الهواء كما يقولون؟

سعد فكرة طيبة والله .. ألسنا جميعاً أعضاء الفرقة التمثيلية في الثانوية ؟

طالب آخر لا أرى مانعاً من ذلك !

رابع لقد سئمنا أداء النصوص المكتوبة .. نريد أن نتحرر قليلاً !

خامس وغداً سنفاجئ مدرّس العربية بما لم يكن يحلم به !

سادس قرأت قبل أيام عن شيء من هذا القبيل .. ولكن ..

منذر ولكن ماذا ؟

الطالب أخشى ألاّ تنجح المحاولة !

منذر (ضاحكاً) ولنفرض أنها انتهت بالإخفاق .. ماذا في ذلك .. هل سيقودنا ذلك إلى الرسوب في درس العربية ؟! إننا وحدنا هنا .. لا مشاهدون ولا مدرِّسون.. ولا طلبة آخرون .. بالعكس ، إنني أعتقد أن هذا سيمنحنا فرصة أكبر للإبداع

سعد بكل تأكيد .. فأنا عندما تحاصرني توجيهات المُخرج ، وقيود النصّ المكتوب ، ونظرات الجمهور .. أُعاني من التوتر .. شيء من هذا القبيل يجعلني أُمارس دوري كما لو كنت طالباً في الابتدائية !

منذر (مقترباً من حمدون) وأنت يا حمدون ؟

حمدون (وهو يعاني من بقايا السكر) أُمثّل .. معكم .. طبعاً ..

منذر طيّب .. فلنبدأ أيّها الزملاء .. إنني ..

سعد (معترضاً) ولكن ألا يتحتم أن تطرح علينا خطوطاً عريضة لما سنرتجله؟ مجرد ضوابط كي لا تغدو المحاولة عبثاً ولعب صبيان ، وينطلق الحوار على غير هدى ..

منذر بالعكس يا سعد .. إننا نريدها ارتجالاً منذ اللحظة الاولى ليس ثمة أيّ تصوّر مسبق عمّا سنؤدّيه .. لنترك الحوار يتخلّق بعفوية تامة. مَن يدري ؟ لعلّه ينتهي إلى معنى فيكسب قيمته .. كما يقول الناقد .. ستراً .. سلا .. لا علينا فقد نسيت اسمه .. ما رأيكم يا إخوان ؟

الطلبة جميعاً موافقون ..

منذر (يغيّر ملامح وجهه ، ويُكسِبها شيئاً من الصلابة والتجهّم والاعتداد .. يصيح) سعد

سعد (ينهض ويتقدم لكي يقف أمامه) ها أنا ذا أيّها الزميل ..

منذر (بالتجهّم نفسه) من كلفك بالمصالحة بيني وبين حمدون ؟

سعد أنت أيّها الزميل !

منذر (يصرخ) كذب .. ادّعاء رخيص .. لم يكلفك أحد إنني أعرف حمدون جيداً.. إنه لا يستحق أن أتنازل فأطلب منك مصالحتي معه .. كذب .. إنه من النوع الذي لا يحتّم عليك أن تحترمه !

سعد (بشيء من الخوف) ولكن..

منذر ابتلع لكن هذه ، وقل لي بصراحة ، هل يليق بي أن أُوسّط أحداً بيني وبين هذا المدلّل (يشير إلى حمدون) !

سعد (يتلعثم) الحقيقة .. أنني .. إذا ..

حمدون (ينهض وهو يهتز غضباً) قلت لك دعك من هذه الألفاظ (يعضّ على شفته السفلى) إنها تجرحني (يجلس) ..

منذر (وهو يطلق ضحكة مجلجلة) انظروا أيّها الزملاء .. انظروا إلى هذه المرأة الرقيقة .. هل ترون على ثيابها بقعة من دم ؟ هل ترون ولو نقطة واحدة ؟ إنها تدعي أنني جرحتها !

الطلبة (وهم يتحلّقون حول حمدون ويتفحصون ثيابه) كلا أيّها الزميل ..

منذر (بنفس الضحكة المجلجلة) أرأيت يا سعد ؟ هذه شهادة الرجال .. أترى كيف أنه يقذفني بتهمة باطلة !

حمدون (ينهض ثانية بانفعال أشد) صه أيّها الحقير .. إنني أعرفك جيداً ، أناني تريد أن تحوّل كل شيء لصالحك .. وها أنت ذا تستغل موقفك هذا لتدميري !

منذر (يهمس في أُذن سعد) ألا تراه قد تجاوز الحدّ في اختيار كلماته البذيئة ؟

سعد (هامساً هو الآخر) أعذره فإنه لا يزال مخموراً .. لعلّه يخلط بين ..

حمدون (مستمراً) ولكنني لن أسمح لك بأكثر من هذا ، سأُوقفك عند حدّك أيّها الدعي ..

وسوف ترى ..

منذر (بانفعال هو الآخر) ولكنك توجه إليّ كلمات قاسية أيّها الزميل !

حمدون أنت الذي بدأ فاختار أن يكون عديم الأدب ، والبادئ أظلم (يمدّ يدَه إلى جيب بِنطاله الجانبي كما لو يتحسّس شيئاً)

سعد (محاولاً تلطيف الجو) يا للجارين العزيزين ، إنهما يبرزان الآن كما لو كانا عدوّين لدودين .. إنني أُهنئكما ! فهكذا يكون التمثيل !

حمدون ابتعد أنت عن طريقنا .. أنصحك !

سعد (ساعياً لتغيير الموقف) لقد قلتما أنت ومنذر كل ما عندكما ، دعوا الآخرين يتحدثون ..

أحد الطلبة (وهو ينهض) أُفضّل أن يتوقف المشهد عند هذا الحد !

طالب آخر أنا معك ، فهذا يكفي ..

حمدون كلا .. فإنني لم أقل بعد كل ما عندي ، والمشهد لم يكتمل .. لحظات وينتهي كل شيء (يسحب من جيبه مسدساً صغيراً ويشهره في وجه منذر).

منذر (وقد بوغت) لا أعتقد أنك ستفعلها يا حمدون !

سعد (بصوت مرتجف) بكل تأكيد .. لا يمكن .. إنما هو تمثيل في تمثيل ..

حمدون (بصوت مرتجف وهو يلوّح بمسدسه) بل سأفعلها يا سعد ، وسيعرف منذر أنني لست مدلّلاً .. ولا امرأة .. ولا جباناً (يصرخ) سأكون رجلاً وسأقتلك (يضغط على الزناد بيد مرتجفة فتنطلق كالبرق الخاطف رصاصة تستقر في بطن منذر قريباً من حجابه الحاجز).

منذر (وهو يتكوّم على الأرض وسط بقعة من الدم) إنك بهذا تؤكد جبنك ، لو كنت رجلاً لما فعلتها يا حمدون (يسقط مغشياً عليه) (يهرع الطلبة إلى حمدون فيستلّون منه المسدس ويطوحون به بعيداً وسط حالة من الدهشة والرعب).

سعد (وهو يحتضن زميله الذي يشخب دماً) منذر .. منذر ..

حمدون (بوجه شاحب وكلمات متقطعة) لا .. داعي .. لأن تخافوا .. سأذهب بنفسي .. إلى الشرطة لكي .. أُقول .. لهم .. إنني .. أنا ..الذي .. قتلته !

– ستار –

الظن

المشهد الأول

((غرفة السكرتير في المديرية العامة للإنشاءات الأساسية يتوسطها – بموازاة الجدار الأيمن – مكتب واسع رصّت عليه الأضابير ، وعلى جوانبه انتشرت ثلاثة تلفونات وجهازان للإنصات. قبالة المكتب ينتظم خط من مقاعد الاستراحة والكراسي الأنيقة.

الغرفة مبطنّة بخشب الصاج ومفروشة بالسجاد الفاخر وقد علقت على بعض جدرانها خرائط ، وجداول بيانية ، ورسوم خاصة بالهيكل التنظيمي للمديرية.

ثمّة باب ذو مصراعين بين هذه الغرفة وغرفة المدير العام. يبدو السكرتير جالساً إلى المكتب بتأنّق ظاهر ، وهو يتلوّى بكرسيه الدوّار ذات اليمين وذات الشمال ، وعلى أحد المقاعد التي تقابله يجلس عبد العزيز السيّد ، واحد من كبار مُقاوِلي المدينة .. الساعة : حوالي العاشرة صباحاً ..)).

السكرتير (بابتسامة رقيقة) شاي .. أم قنينة بيبسي ؟

عبد العزيز (بابتسامة مثلها) شكراً .. شكراً جزيلاً (يشير إلى غرفة المدير العام وإلى بابها الموصد) هل ؟

السكرتير موجود ، بالطبع .. دقائق وتدخل عليه.

عبد العزيز (بالابتسامة نفسها) هل ؟

السكرتير منذ أكثر من نصف ساعة وهو مجتمع بالسيد مدير الإدارة.

عبد العزيز لو كنت أعرف ذلك لجئت قبل التاسعة.

السكرتير نفس النتيجة ، كان يجتمع حينذاك بالسيد رئيس المهندسين.

عبد العزيز لا أعتقد أن الاجتماع سيطول أكثر ؟

السكرتير بكل تأكيد .. فهو رجل يحسم الأُمور بسرعة ، ولا يتردد طويلاً إزاء اتخاذ القرار .. كلمة وغطاؤها كما يقول المثل.

عبد العزيز (وهو ينزلق قليلاً صوب حافة المقعد) وهل ثمة أمور تحتاج إلى حسم ؟

السكرتير (يعود إلى التلوّي بكرسيه) وهل تعتقد أن الإدارة تخلو يوماً من مسائل تتطلب الحسم ؟ الإدارة مسؤولية يا سيد عبد العزيز ، ولن يقدر عليها كل مَن هبّ ودبّ ..

عبد العزيز (يرفع صوته) بكل تأكيد ، إنني أعرفه جيداً ، لقد كان يمارس هذه الخصيصة في مسائل المقاولات أيضاً ..

السكرتير (يضغط على الجرس فيدخل الفرّاش) كوبان من الشاي .. بسرعة ..

الفرّاش حالاً ..

عبد العزيز (بنفس النبرة المرتفعة) لم يكن يدع الأُمور تتميّع وتفلت من قبضته. أنت تعلم أن بعض المقاولين مراوغون ، محتالون ، لا يريدون أبداً أن يصلوا إلى هدفهم على خط

مستقيم .. لكأنهم قد تخرّجوا من ملاعب كرة القدم .. والرجل يكره المناورة ، كما يكره اللعب في ساحة الجدّ ! (يدخل الفرّاش بكوبيْ الشاي)..

عبد العزيز (وهو يرشف كوبه) إذا أردت الحق فإنني لم أعد أرتاح لصالح السلمان ، صحيح أنه مقاول كبير وملتزم بكلمته ، إلاّ أنه لا يختلف عن هؤلاء الذين أتحدّث عنهم .. مراوغ من طراز أول ..

السكرتير (وهو يرشف الكوب أيضاً) مهما يكن من أمر فإنه قد قدّم خدمات كبيرة لمديريتنا ، إن معظم المشاريع تمّت على يديه .. صحيح أنه يطلب أجوراً خيالية، ولكنه يعرف كيف ينفذ في الموعد المحدّد .. ثم إنه مخلص في عمله لم يعرف الغش إلى قلبه سبيلاً ..

عبد العزيز (بانفعال مكبوت) يبدو أنك لا تعرفه جيداً ، سَلْني أنا عنه ، فليس مَن جرّب كمَن لم يجرّب !

السكرتير (باعتداد) لا يا سيد عبد العزيز ، إنني أعرفه جيداً ، وقد جرّبته لأكثر من أربع سنين .. إنني أعرف ماذا كان يقول وماذا كان يفعل .. ليكن في علمك أنه ما من صغيرة أو كبيرة تجري في هذه المديرية إلاّ وتمرّ من خلالي (يشير إلى غرفة المدير العام) إنه يعتمد عليّ ويثق بي ، فلا يخفي عنّي شيئاً.

عبد العزيز (وهو يعبث بالملعقة ضارباً بها جدار الكوب بين لحظة وأُخرى) بكل تأكيد، ولكنني أظن أنك تبالغ بعض الشيء في تقديرك للسلمان.

السكرتير ليست مبالغة ، ولكنه حكم صائب يستمد حيثياته من حشود الوقائع والممارسات..

عبد العزيز (محاولاً تغيير الموضوع) ها قد مضى ربع ساعة أُخرى والسيد المدير العام مشغول باجتماعه .. أتراه سيطول ؟

السكرتير (بخبث) أتدري ؟

عبد العزيز (بتلهف) عن أي شيء ؟!

السكرتير إنه على موعد مع صالح السلمان !

عبد العزيز متى ؟

السكرتير بعد ربع ساعة على الأكثر ، اتصلَ به هاتفياً صباح اليوم واتفق معه على الموعد ..

عبد العزيز (بانفعال) متى ؟

السكرتير الحادية عشرة.

عبد العزيز (ينظر إلى ساعته بقلق) ولكنني أنتظر هنا منذ أكثر من نصف ساعة.

السكرتير ولماذا لم تحدّد موعداً مسبقاً مع السيد المدير؟

عبد العزيز ما كنت أعتقد أن الأمور قد بلغت عندكم هذا الحد من التعقيد ، (ينهض بعصبية) يبدو أنني سأضطر إلى تأجيل مقابلته ..

السكرتير انتظر قليلاً فلعلّ اجتماعه بالسيد مدير الإدارة ينتهي وتدخل عليه قبل مجيئ السلمان ..

عبد العزيز (يجلس ثانية) أتعتقد ذلك ؟

السكرتير ولِمَ لا ؟

(جهاز المكالمة الداخلي يخرخش ويسمع صوت المدير العام).

المدير العام ألم يحضر بعد ؟

عبد العزيز (يتحفّز للقيام) ؟!

السكرتير (وهو يضغط زر الجهاز) كلاّ ! ولكنه سيحضر بكل تأكيد ، إنه لا يخلف موعداً.

عبد العزيز (ينكمش قليلاً في مقعده) ..

المدير العام أدخله عليّ لحظة وصوله ..

السكرتير حاضر (يقفل الجهاز).

عبد العزيز يبدو أن اجتماعه بمدير الإدارة له علاقة ما بموعده مع السلمان!

السكرتير (وهو يبتسم كمَن يملك سرّاً) لا .. فتلك مسألة أُخرى .

عبد العزيز ولكنه يطلبه ومدير الإدارة عنده ..

السكرتير لعلَّ في الأمر علاقة ما .. ولكن تلك مسألة أُخرى !!

(ينفتح باب المدير العام قليلاً ، ويخرج مدير الإدارة ، يسلّم وهو يغادر المكان).

السكرتير (بنوع من الإحساس بالانتصار) ألم أقل لك ؟

عبد العزيز هل تعتقد أن من المناسب أن أدخل عليه اللحظة ؟

السكرتير (متردداً) والله .. الحقيقة .. في اعتقادي ..

(يدخل صالح السلمان ، يبادل الرجلين التحية .. يقفز عبد العزيز السيد من مكانه ، ويتقدم خطوة صوب السلمان فاتحاً ذراعيه).

عبد العزيز الأخ صالح ؟ كيف حالك يا رجل ؟ ما هذا الانقطاع الطويل ؟

صالح كثرة المشاغل يا عبد العزيز.

عبد العزيز أهكذا تكون معاملة محبّيك ؟

صالح أشتاق لأن ألتقي بك يومياً كما كنّا نفعل أيام زمان ، ولكنها ضرورات العمل ..

عبد العزيز لعنة الله على العمل إذا كان فيه ما يفرّق بين الأحباب !

صالح (بشيء من عدم الارتياح) لست وحدي الذي يخضع للضرورات !

عبد العزيز أية ضرورات هذه ؟ قلّل يا أخي من ارتباطاتك ، وستجد نفسك قديراً على ذلك!

صالح إذا تخلّيت عنها مَن سيتولى مسؤوليتها ؟ (يضحك).

عبد العزيز لست وحدك في الميدان على أية حال .. أنا شخصياً أعطي المجال لغيري من صغار المقاولين لكي يكسبوا.

صالح سأحاول في المرة القادمة لكي أمنحك الفرصة !!

عبد العزيز (مدارياً هزيمته) على أية حال .. إن أموراً كهذه يجب ألاّ تفرّق بين الأحباب..

صالح بكل تأكيد (مقترباً من السكرتير) ها قد حان الموعد ..

السكرتير بالعكس ، لقد مضى عليه أكثر من دقيقتين ، إن السيد المدير العام بانتظارك.

(يدخل صالح ..).

عبد العزيز (وهو يذرع الغرفة وبصوت خافت) أعرفه جيداً .. ألم أقل لك ؟

السكرتير (وهو يقلّب إحدى الأضابير) ماذا ؟

عبد العزيز إن رجلاً كهذا لا يمكن أن يكون نظيفاً .. مراوغ وخبيث ..

السكرتير ولهذا استطاع أن يهدّف عليك من نقطة بعيدة !

عبد العزيز (يصرّ على أسنانه) لن أدعها تمرّ !

السكرتير (ضاحكاً) ولكنها مرّت ، ودخلت الهدف ، واستقرت في الشبكة !

عبد العزيز الكلام شيء والفعل شيء آخر ..

السكرتير (مستمراً على ضحكته) ولكنكما أحباب على أية حال !

عبد العزيز (وهو يجلس على المقعد ثانية) أحباب ؟!

السكرتير لا ترفع صوتك ، أخشى أن يسمعك ..

عبد العزيز حبذا لو يسمعني ، أريده يعرف كيف أنني أحتقره من كل قلبي .

السكرتير يعني وكما يقول المثل ((بين الأحباب تسقط الآداب)) !

عبد العزيز (غير ملتفت إلى تعليقه) إنه من جهته لا يقلّ كراهية .. أنا متأكد من ذلك ، ولكن لا بأس.

السكرتير مهما يكن من أمر فإنه رجل أعمال ناجح بمعنى الكلمة ، وهو المقاول الأول في البلد، ولا أرى أن من مصلحتك إعلان الخصومة معه!

عبد العزيز أتراه سيسحب البساط من تحت قدمي هذه المرة أيضاً ؟

السكرتير (يتصنّع الجد) هذه أمور ليس من مصلحة الدائرة أن أدخل طرفاً فيها ..

عبد العزيز لن يستطيع ..

السكرتير (يمط بوزهُ)..

عبد العزيز كل ما أتمناه هو أن ..

(يطقطق جهاز المكالمة الداخلي فيضغط السكرتير الزر).

صوت المدير العام هل لا يزال السيد عبد العزيز عندك ؟

السكرتير نعم .. إنه هنا ..

المدير العام ليدخل ..

السكرتير حاضر (يقفل الجهاز) السيد المدير يطلبك.

عبد العزيز (مباغتاً) أنا ؟

السكرتير طبعاً ..

عبد العزيز ولكن ..

السكرتير ادخل الآن ، وبعد خروجك سنتناقش في لكن هذه ..

عبد العزيز وصالح السلمان ؟

السكرتير (يتلوّى بكرسيه) قلت لك هذه أمور ليس من مصلحة الدائرة أن أتحدث فيها ..

(يتوجه عبد العزيز السيد إلى غرفة المدير ويوصد الباب وراءه .. يدخل رئيس المهندسين).

رئيس المهندسين (وهو يرتمي بإعياء على المقعد قبالة السكرتير) العمل كثير والطاقة محدودة ..

السكرتير (وهو يقدّم له لفّافة تبغ) لم تقل لي ماذا جرى في اجتماعك مع السيد المدير ..

رئيس المهندسين (ينفخ الدخان بهدوء ولا يُجيب) ..

السكرتير لقد خرجت مسرعاً كأنك تلاحق أحداً ..

رئيس المهندسين (يضحك) أو كأن أحداً يلاحقني !

السكرتير يعني ؟

رئيس المهندسين كان على موعد مع مدير الإدارة ، وكرهت أن ألتقي به هنا وجهاً لوجه .. إنني إذا أردت الحق لا أطيق رؤيته !

السكرتير ولكنكما زملاء في دائرة واحدة .. وقبل ذلك ، لقد كنتما صديقيْ العمر .. ما الذي جرى ؟

رئيس المهندسين أناني .. تافه .. ومصلحته هي مقياسه الأول والأخير في الحياة.

السكرتير لا تظلم الرجل ، فإنما هو يعتمد مقياس العصر الذي نعيشه .. نحن جميعاً نركض وراء مصالحنا !

رئيس المهندسين (بغضب) ليس على حساب الآخرين .

السكرتير مَن كان يتصور أن اثنين من رؤوس دائرتنا ينتهي بهم الأمر إلى ذلك؟

رئيس المهندسين لقد اختار هو أن يبدأ المعركة.

السكرتير أعتقد أنك تبالغ مرة أخرى ..

رئيس المهندسين يريد أن يشغل المنصب الشاغر الذي ينتظر الرجل المناسب.

السكرتير وماذا في ذلك ؟ إن خبرته الإدارية تؤهله تماماً لأن يكون معاوناً للمدير العام ..

رئيس المهندسين (وهو يضغط بعصبية عقب لفافته) دائرتنا ليست مؤسسة إدارية صرفة .. إنها مؤسسة فنية بالدرجة الأولى ..

السكرتير (مبتسماً) يعني أنك تدخل نفسك منافساً له ؟

رئيس المهندسين أبداً .. إنه لم يكن في نيّتي يوماً أن أتحوّل عن موقعي الفني الذي ينسجم وطموحي لكي تمتصّني المهام الإدارية .. لكنه بدأ المعركة ، وتحدّاني ، وسأعرف كيف أستجيب ..

السكرتير وإذا بذلت جهداً أخوياً لمصالحتكما ؟

رئيس المهندسين لن يكون ذلك .. لقد بلغنا – كما يقول المثل – نقطة اللا عودة.

السكرتير (يضحك وهو يغوص في كرسيه الوثير الدوّار) لقد قلتها قبل ذلك مراراً ، ثم تحققت العودة إثر كل مرة !

رئيس المهندسين (وهو يشعل لفافة تبغ أخرى) المسألة تختلف هذه المرة !

السكرتير سبحان الله .. لكنك لم تحدّثني عما قاله لك السيد المدير العام ؟

رئيس المهندسين وماذا تظنه يقول ؟ لقد أثنى على كفاءتي في العمل وإخلاصي للدائرة ، وأكّد لي أنه يعتمد عليّ ، وأنه يعتبرني ساعِده الأيمن ، وموضع ثقته..

السكرتير أتراه ..

رئيس المهندسين (مقاطعاً) بكل تأكيد .. لكنني متردد في الأمر ..

السكرتير ومدير الإدارة ؟

رئيس المهندسين إن تصرّفه الأحمق قد يدفعني إلى تغيير سياستي في هذه الدائرة .. لقد قبلتُ التحدّي – كما قلت لك – ولن أنهزم أمامه ..

السكرتير لقد اجتمع هو الآخر بالسيد المدير العام.

رئيس المهندسين أعرف ذلك .. وأنا واثق من أنه استغلّ الفرصة فسعى لتلطيخ سُمعتي لديه لكي يخلو له الطريق ..

السكرتير حسّن ظنك يا رجل .. ثم إن المدير لا يسمح لنفسه بسماع ترّهات كهذه.

رئيس المهندسين ليس مع المدير العام فقط ، ولكنه يثير الشائعات عنّي في الدائرة وخارجها..

السكرتير ليس إلى هذا الحد ..

رئيس المهندسين بل أكثر من ذلك ، إن يقول بأنني وراء صالح السلمان ..

السكرتير (بدهشة) ماذا ؟

رئيس المهندسين يرشوني الرجل ، فأرمي بثقلي لكي يتولى كل المشاريع التي تقوم بها الدائرة ..

السكرتير خفّض صوتك فإنه في غرفة السيد المدير العام.

رئيس المهندسين أعرف ذلك .. إنها ضريبة التفوّق والنجاح .. إنني لست وحدي المستهدَف ولكنه السلمان أيضاً ..

السكرتير كيف ؟

رئيس المهندسين إن مدير الإدارة يصطنع منافساً للسلمان ، وسيدفع به في اللحظة المناسبة، إنه الآن يعدّ العدّة لكي يحل محل السلمان حال تمكّنه من الحصول على المنصب الجديد ، وحينذاك سيمارس مع صاحبه لعبة خذ وهات .. ولكن ذلك لن يكون !!

السكرتير (يبتسم) هل تعلم أن هذا الرجل موجود هو الآخر في غرفة السيد المدير ؟

رئيس المهندسين (وقد بوغِتَ) لا !!

السكرتير كان هنا قبل دقائق يشنّ حملة قاسية ضد السلمان ، فلما دخل هذا علينا تلقّاه عبد العزيز بالأحضان !! ماذا تسمّي هذا ؟

رئيس المهندسين: مراوغة محبوكة .. أليس هو صنيعة مدير الإدارة ؟

السكرتير: لا تجري هكذا وراء أوهامك ..

رئيس المهندسين: بل هي الحقيقة بكل تأكيد .. إنه يقوم بمحاولة التفاف ، ويُخشى أن يسحب البساط من تحت صالح السلمان .. إن مدير الإدارة وراءه .. بكل تأكيد..

السكرتير: (مبتسماً) وأنت ، ألست وراء السلمان ؟

رئيس المهندسين: (مغضباً) إنك تردّد الشائعات الرخيصة.

السكرتير: أبداً ، ولكنك أنت الذي تؤكدها بتصنيفك العجيب هذا !

رئيس المهندسين: (ينهض بعصبية) إن مدير الإدارة يلعب لعبة مزدوجة ولكني من جهتي سأعرف كيف أضرب عصفورين بحجر واحد ..

(يغادر المكان)

(جهاز المكالمة الداخلية يخرخش ..)

السكرتير: نعم ..

صوت المدير العام: قل للفرّاش يأتينا بثلاثة أكواب من الشاي ..

السكرتير: حاضر ..

صوت المدير العام: لتكن خمسة أكواب ، واطلب من مدير الإدارة ورئيس المهندسين أن يحضرا إلى هنا ..

السكرتير: حاضر (يقفل الجهاز) ..

المشهد الثاني

((غرفة المدير العام ، أنيقة ، مغلَّفة بخشب الصاج ومفروشة بالسجاد الفاخر .. يتصدّرها مكتب المدير الواسع ، وتمتد إلى يمينه وشماله مقاعد استراحة ذات طراز بديع ، وعلى المكتب مزهرية تفوح العطور الزكية من أزهارها الطبيعية وتتبعثر إلى جوارها الأضابير والخرائط والأوراق. وثمة إلى اليسار مكتبة خاصة بأجهزة التلفاز والفيديو .. إلى آخره .. وإلى أعلى منها عدة رفوف صُفَّت عليها الكتب والأضابير)).

المدير العام (وهو يتلوّى على كرسيه ذات اليمين وذات الشمال ، مخاطباً صالح السلمان) إذن فأنت ترفض قبول المشروع ؟!

صالح بالضبط ، فإن أعمالي تفوق طاقتي ، ولم تعد صحتي كما ترى تتحمل المزيد من الجهد ..

المدير العام ولكنه مشروع كبير ومعقّد ، ولن يقدر عليه غيرك ..

صالح قبل عدّة سنوات كنت أُريد أن التهم الدنيا .. لو عرضت عليّ يومها عشرة مشاريع مثله لهرعت لكي أقول لك هات ! أما الآن !

المدير العام أربع سنوات تُخيفك إلى هذا الحد يا مقاوِلنا الكبير ؟

صالح قبالة الزمن .. لن يظل أحد كبيراً ، إنه يعرف كيف يطوينا فيردّنا صغاراً .. ألم تسمع عن شيء اسمه أرذل العمر ؟ يقولون إن الإنسان ينكفئ فيه إلى طفولته ، فيمارس الكثير مما كان يمارسه يومها !

المدير العام دعنا من أرذل العمر هذه !

صالح ولكنها قادمة بكل تأكيد .. إنه يتحتّم علينا أن ننحني قليلاً لكي نسمح لإرادة الزمن بالمرور ، وإلاّ ارغمنا على الانكسار.

المدير العام يعني ؟

صالح يعني أنني أعتذر عن قبول المشروع .. لكن اعتزازي بدائرتكم لن يتزحزح وحرصي على مشاريعها سيظل الدافع والمحفِّز .. ولن أكون وفيّاً إذا نسيت أنها هي التي شقّت أمامي الطريق فبلغت ما أنا عليه الآن !

المدير العام لم يكن ذلك ليحدث لولا كفاءتك ، وإخلاصك ، واحترامك لقيمة الكلمة ..

صالح إنني إذ أعتذر عن قبول المشروع ، أشعر باطمئنان كامل إلى أنني لن أُفرّط به، لأن اليد التي ستتولاه ستعرف كيف تنجز المطلوب بأكبر قدر من الأمانة والكفاءة

والإخلاص (يربت على كتف عبد العزيز)

عبد العزيز (الذي كان يقلّب لعدّة دقائق إحدى أضابير المشروع يرفع رأسه وكأنه قد بوغت) أنا ؟!

صالح (بابتسامة هادئة) ومَن يكون غيرك ؟

عبد العزيز ولكن.

صالح إنني كنت أرقُب عن بُعد أنشطتك المتزايدة في سَاحة المقاولات وكنت أقول في نفسي إن الرجل سيكون له مستقبل مشهود ..

عبد العزيز (بشيء من الحياء) مهما فعلنا فلن نكون بأكثر من تلاميذ إزاء معلمهم أو أستاذهم ..

صالح وإنني لأرجو ، إذا جرت الأمور وفق ما يشتهيه المرء ، أن تبزّ معلمك في الحِرفَة التي برعت فيها ..

عبد العزيز أشكر لك تشجيعك ومشاعرك المخلصة أيها الأخ العزيز ، وإنني لأرجو أن أكون عند حُسْن ظنك !

المدير العام (ضاحكاً) الأهم من ذلك أن تكون عند حُسْن ظنّنا وإلا أفسدت علينا المشروع ..

عبد العزيز (ضاحكاً هو الآخر) سيكون مشروعكم بمثابة حقل لتجاربي ، ولن يضمن أحد النجاح سلفاً !

صالح ألم أقل لك في غرفة السكرتير أنني سأمنحك الفرصة لكي تتعلم (يضحك وهو يربت على كتف عبد العزيز)

(يدخل مدير الإدارة وفي أعقابه رئيس المهندسين ، يجلسان متباعدين ..).

المدير العام ليس ثمة جدوى .. لقد اعتذر صالح السلمان عن قبول العرض ..

رئيس المهندسين (مباغتاً) لا.

صالح السلمان وماذا في ذلك ؟

رئيس المهندسين ماذا في ذلك ؟ واحد من أكبر مشاريع الدائرة تكلفةً واتساعاً تتخلى عنه يا صالح ؟

صالح اطمئن .. فسيتولاه رجل لا يقلّ كفاءة ومقدرة عنّي ..

رئيس المهندسين مَن ؟

صالح عبد العزيز السيد !

رئيس المهندسين (بارتباك) ولكن ..

صالح (بهدوء) .. لكن ماذا ؟

رئيس المهندسين أتتخلى عن المشروع باختيارك ؟

صالح كلا بطبيعة الحال ..

رئيس المهندسين (يهزّ رأسه وكأنه يحدّث نفسه) هذا ما خمّنته ، لقد أنتصر مدير الإدارة في الجولة الأولى .. ولكنني لن أنهزم ..

صالح إن للزمن أحكاماً يا عبد الحافظ !

المدير العام (لمدير الإدارة بصوت خافت) ألا ترى أنه متوتر أكثر مما يجب ؟ هل ثمة ما يقلقه ؟ أتراه خائفاً من المسؤولية إلى هذا الحد ؟!

مدير الإدارة لا أدري ، ولكنني اكتشفت عبر الأيام الأخيرة أنه يتهرّب من مقابلتي .. لقد اضطررت اليوم وهو يمرّ بي وأنا جالس إلى مكتبي ، أن أسلّم عليه .. فلم يردّ عليّ ..

رئيس المهندسين (وقد انتبه لجانب من الحديث ، بعصبية) طبعاً ، فإن مَن يطعنك من الخلف ، ويتآمر عليك ، لا يستحقّ أن تردّ عليه السلام. (المدير العام ومدير الإدارة ينظر أحدهما للآخر دون أن يفقها شيئاً .. ينهض صالح السلمان وعبد العزيز السيد).

صالح (للمدير العام) اسم لنا بالانصراف فإن لديّ موعداً.

عبد العزيز وسأرجع أنا بعد يومين أو ثلاثة لمناقشة تفاصيل العرض.

المدير العام طيّب ..

(يغادران الغرفة)

المدير العام (لرئيس المهندسين) ماذا دهاك يا عبد الحافظ ؟

رئيس المهندسين (بارتباك) لا شيء .. لا شيء ..

المدير العام لعلك متخوِّف من المسؤولية الجديدة ؟

رئيس المهندسين (غير منتبه) عشر سنوات وأنا أتحمل مسؤوليتي فما ثمّ مبرر للخوف ..

المدير العام لعلك غاضب عليه لأنه لم يحاول أن ينقذك منها

رئيس المهندسين لا دخل له مطلقاً بأعمالي .. إنها أمور فنّية صرفة لا يملك أيّة خبرة فيها ..

المدير العام ولكنها هذه المرة أُمور إدارية صرفة ! وهو الذي ..

رئيس المهندسين (مقاطعاً) ماذا ؟

المدير العام هو الذي أختارك لها ، بعد أن اعتذر أكثر من مرة عن قبولها ، وشجعني على أن تكون أنت البديل ..

رئيس المهندسين (يحدّق بمدير الإدارة دون أن ينطق بشيء) ..

المدير العام لقد قال لي بالحرف الواحد إنك أكفأ مَن يتولى المهمة ، إن كان يشك في قدراته الخاصة فإنه لن يشك فيك !

مدير الإدارة (ينهض لكي يصافح رئيس المهندسين) تهانيّ القلبية يا معاون المدير العام.. ولكن حذار من عدم التسليم عليّ بحجة أنك غدوت أعلى منّي منصباً، إن المناصب مسؤولية عابرة ولن تدوم لأحد يا عبد الحافظ .. (يضحك)

رئيس المهندسين (لا يزال مندهشاً) ولكن ..

المدير العام لقد صدر الأمر ويمكنك أن تتسلمه من السكرتير !

– ستار –

الاضطهاد

((صالة الانتظار في عيادة الطبيب النفساني الدكتور هاني عبد العظيم .. يرى ثلاثة مراجعين يجلسون متباعدين بانتظار الدخول على الطبيب .. في وسط الصالة وضعت منضدة واطئة انتشرت عليها المجلات .. في أعلى الباب الموصد المُفضي إلى غرفة الطبيب ثُبّت جرس صغير .. وعلى الجدران إلى اليمين والشمال علّقت صورٌ شتى لأُناس عاديين يخضعون للفحص والعلاج وبعضها الآخر لمشاهير علماء النفس ..

الوقت : مساء ، وعند رفع الستار يرى مريض رابع يجتاز الباب الخارجي للعيادة .. يقف عند العتبة لحظات ثم يتجه لكي يجلس إلى جوار أحد المراجعين ..)).

المراجع (وهو يحدّق بالقادم الجديد دون أن يقول شيئاً) ..

القادم (يلتفت عرضاً فيجد جاره يحدّق فيه) آسف .. مساء الخير ..

المراجع (مستمراً على التحديق دون أن يردّ عليه) ..

القادم ينسى الإنسان أحياناً أن يؤدي أبسط صيغ المجاملات ، مع أنها غدت في زمننا ضرورة من الضرورات ..

المراجع (مستمراً على التحديق) ..

القادم إن فكر الإنسان أصبح مشتّتاً .. لقد افتقدنا القدرة على التركيز ، أما قوة الذاكرة فقد أصبحت من الحيوانات المنقرضة (يضحك).

المراجع (مستمراً على التحديق) ..

القادم (محاولاً أن يُداري الموقف) نسيت كذلك أن أُعرّفك بنفسي ثامر عبد الرحيم العلاّف ، مدير تحرير في صحيفة الفجر .. يبدو أنني رأيتك من قبل ..

المراجع (يَدْعَك جبهته كمَن يحاول أن يتذكر ، ثم ما يلبث أن يبتسم ابتسامة باهتة وهو يقول) ثامر العلاّف ؟

ثامر (بشيء من الحياء) نعم ..

المراجع بكل تأكيد .. لقد التقينا أكثر من مرة .. على أية حال فإنني أعرفك من كتاباتك.. إن تحقيقاتك الصحفية أصبحت نموذجاً يحتذي به الصحفيون الجدد ..

ثامر ليس كما تتصور .. ولكن ..

المراجع (مقاطعاً) بل أكثر من ذلك (كمَن يتذكر) وأنا كذلك نسيت أن أُعرِّفك بنفسي ، إدريس غانم محجوب ، مدرِّس رياضيات في ثانوية الحضارة.

ثامر يا سبحان الله .. لقد تذكرت .. ألم تجِئْنا إلى إدارة التحرير أكثر من مرة ؟

إدريس ثلاث أو أربع مرات ..

ثامر قلت في نفسي لحظة دخولي ، إن الرجل ليس غريباً عليّ .. ولكن ..

إدريس (مقاطعاً) زيارات شخصية .. وقلت أيضاً أُجرّب قلمي فلعلّ صحيفتكم تفتح صدرها لإحدى مقالاتي .. كنت مهتماً بعض الشيء بفلسفة العلوم ..

ثامر وماذا كانت النتيجة ؟

إدريس الاعتذار طبعاً ..

ثامر (كمَن يدافع عن نفسه) لم تمرّ عليّ أية من مقالاتك .. لقد اعتذرتُ عن المشاركة في فحص المقالات المقدّمة للصحيفة منذ زمن بعيد .. لأنني أحببت أن أتفرغ كليّة للتحقيقات .. منذ متى أرسلت مقالاتك ؟

إدريس لا .. أبداً .. إنما هي مقالتان فقط (يدْعَك جبهته) أعتقد أن المحاولة كانت .. كانت..

ثامر دعك من هذا وقل لي هل حاولت أن تجرب حظك مرة أُخرى ؟

إدريس لا .. طبعاً ..

ثامر لماذا ؟

إدريس ما الجدوى ؟

ثامر بالعكس ، فإنه ما من كاتب أو صحفيّ إلاّ كان يتحتم عليه أولاً أن يقدّم عدداً من القرابين .. من أكباش الفداء ، على مذبح النشر (يبتسم) يُعتذر عن نشرها كالعادة ، ثم بعدئذ تنفتح الأبواب ..

إدريس (بشيء من الحدّة) معي بالذات لا تنفتح الأبواب !

ثامر ولكنني أسألك لماذا لم تحاول الثالثة والرابعة ؟

إدريس (بالحدّة نفسها) لأنه لا جدوى .. فالأبواب مؤصدة ..

ثامر كيف لك أن تتأكد من ذلك

إدريس (بنفاد صبر) يكفي المرء أن يجرّب مرتين فينتهي إلى الإخفاق ..

ثامر ولكن ..

إدريس (مقاطعاً) ما من محاولة في حياتي إلاّ وانتهت بالإخفاق لقد هزمت أكثر من مرة !

ثامر لا تكن متشائماً إلى هذا الحدّ .. قاوم ..

إدريس (بقلق متزايد) لا أدري متى بدأت اللعنة .. وبعدها فرض الحصار ..

ثامر وهل تراجعت بسهولة ؟

إدريس (مادّاً شفتيه بازدراء) قاومت كثيراً .. ولكنني كنت أُعاني الهزيمة في كل مرة.. ماذا بمقدور المرء أن يفعل إزاء قوى تفوقه بكثير ؟

ثامر واستسلمت أخيراً ؟

إدريس (يضحك بعصبية) يا لها من تعابير وقوالب جاهزة تستعملونها في مهمتكم الصحفيّة .. المقاومة .. الاستسلام .. (يرفع صوته أكثر) تعال كن في مكاني وستعرف سخف هذه الكلمات ..

ثامر (متراجعاً) آسف إذا كنت قد الححت عليك ..

إدريس (بالازدراء نفسه) وهذه أُخرى .. تعرفون كيف تتملّصون كالأفاعي الملساء، ولكن بعد أن يكون السمّ قد سرى في الدماء ..

ثامر (متمالكاً أعصابه) ولكنني لم أرد ..

إدريس (مقاطعاً) كفّ عن ملاحقتي بأسئلتك ايّها الرجل .. أنصحك ..

ثامر ولكن ..

إدريس (وهو يهتزّ بهدوء على كرسيه) كفّ عن ملاحقتي .. أرجوك ..

ثامر (بغضب مكبوت) لم يكن في نيّتي أن أُلاحقك ..

إدريس تحقيق صحفي على حساب مدرّس بائس !

ثامر ليس سوى سوء الحظ الذي دفعني للجلوس إلى جوارك ..

إدريس ولكن ثق بأنك لن تحظى منيّ بكلمة أُخرى ..

ثامر وماذا أفعل بكلماتك ؟ هل جننت لكي أسمح لنفسي بإجراء تحقيق مع رجل مريض مثل !

إدريس (يدْعَك جبهته كمَن يحاول أن يتذكر) ولكن قل لي يا رجل .. من أين لك أن تعرفني؟

ثامر (كاظماً غيظه) سوء الحظ ليس إلا ..

إدريس (يضحك) أما أنا فيبدو أنني أعرفك جيداً ..

ثامر ها قد عدنا من حيث بدأنا .. (يهمّ بالنهوض)

إدريس (متشبثاً به) اجلس .. اجلس .. يبدو أنني أسأت الأدب معك.

ثامر لو كانت من رجل عادي لقلت لا بأس ، ولكن من مدرِّس رياضيات (يضغط على مخارج الحروف) (ينهض) ..

إدريس (ينهض هو الآخر ويتقدم لكي يقف قبالة ثامر ، يمدّ رأسه ويحدّق فيه .. لحظات.. ثم ما يلبث أن يصرخ) قلت لك إنني أعرفك جيداً ، هذه ليست أول مرة تلاحقني فيها (يمسك به بعنف).

(يهرع فراش العيادة لكي يفصل بينهما ، ويخرج الطبيب نفسه ، يتقدم بهدوء حتى يغدو على بُعد خطوة من الرجلين .. يتمعن في وجهيهما .. ثم يهمس في أُذن الفراش).

الطبيب مَن منهما يا محمود ؟

الفرّاش (يشير من طرف خفي إلى إدريس).

الطبيب أعطه الفرصة لكي يدخل عليّ. بعد خروج المريض الذي أُعالجه مباشرة.

الفرّاش ولكن يسبقه اثنان ؟

الطبيب (بحزم) أدخله عليّ.

(يعود إلى غرفته ، بينما يتجه ثامر إلى مقعد بعيد لكي يجلس عليه .. يقف إدريس أكثر من دقيقة في مكانه لا يحير حراكاً ، ثم ما يلبث أن يتجه لكي يجلس إلى جوار ثامر ..).

إدريس (مستلقياً على الكرسي) آه.

ثامر (يحدّق فيه دون أن ينطق بكلمة).

إدريس منير فرحان أليس كذلك ؟ ولكن ما الذي جعلك تجلس مؤدباً هكذا ؟ ليس من عادتك يا ولد ؟ (يضحك).

ثامر (ينظر إليه دهشاً ثم يشيح بوجهه) ..

إدريس لقد مارست تعذيبي طويلاً في الصف ..

ثامر (يبتسم) ..

إدريس أمام حشود الطلاب جعلتني هزؤة ..

ثامر .. ..

إدريس حتى العقارب الصغيرة والضفادع الملطخة بالوحل كنت تضعها في جيبي وأنا مستدير إلى اللوحة أكتب عليها المعادلات !!

ثامر .. ..

إدريس (يضع يده على كتف ثامر) توسلت إليك فلم تجد توسلاتي ، حاولت أن أُوقفك بالعنف فهزمتني .. ولكنني كشفتك أخيراً على حقيقتك .. لم تكن تفعل ذلك بإرادتك ولغرض الترفيه عن نفسك وعن زملائك كما يقال ، على حسابي .. لقد كنت مدفوعاً من الآخرين .. إنني أعرفهم واحداً واحداً .. (يدْعَك جبهته كمَن يحاول أن يتذكر .. تنساب قطرات العرق فيدفعها بإصبعه ، ينهض ويقف قبالة ثامر تماماً) رؤوف مصلح أفندي ، أليس كذلك ؟ أجِبني يا رؤوف ، يا مدير المدرسة المحترم ، لماذا حاولت تدميري ؟ لأنني لم أنْحَنِ لك ، وأطأطئ رأسي موافقاً على أخطائك ، تسلّط عليّ ذلك الطالب الشرير ؟ (يصرخ) أجِبْني يا رؤوف أما كان بمقدورك أن تنصحني، أن تعلّمني الطريق ، أن تكون زميلاً مخلصاً فتجنبني التهلكة ؟ لماذا سلّطت عليّ

من لا يرحمني يا رؤوف ؟ (يعود مرهقاً لكي يجلس على كرسيه)..

ثامر (يدمدم مع نفسه) كما كنت أتوقع .. هذه فرصة طيبة والحق يُقال لتحقيق فريد ..

إدريس ماذا تقول ؟

ثامر لا شيء .. (يحاول أن يُخرج دفتراً صغيراً من جيبه ، ويفتح قلم الحبر دون أن يلحظه إدريس .. يدوِّن بعض الملاحظات).

إدريس (يحدّق فيه ، ينهض ثانية ويذرع الصالة بعصبية وبخطوات واسعة ، وبين الحين والآخر يدفع بإصبعه قطرات العرق المنساب على جبهته) .. إذن فأنت تعترف بخطئك ؟ أما أنا فإنني سأغفر لك رغم أنك سقتني إلى الدمار ..

(يدق جرس الطبيب ، يخرج المُراجع السابق ، يتقدم الفرّاش من إدريس بشيء من التردّد).

الفرّاش (متودّداً) لقد جاء دورك .. يمكنك الدخول ..

إدريس (محدّقاً فيه وهو يعتصر جبهته) وجهك ليس بغريب عليّ (يصرخ) أوه .. جابر عبد المحسن .. أين تريد أن تذهب بي أيها النذل ؟ أمَا يكفيك أنك تسببت في فصلي عن العمل لأكثر من سنتين ؟

الفرّاش (ينظر إليه دون أن يفقه شيئاً) ولكن الطبيب يريدك !

إدريس المدير العام ؟ وبعدها التحقيق .. والاتهام .. ثم الفصل .. سنتان وأنا وأطفالي نُعاني من الجوع بسبب شهادتك الحقيرة .. قل لي كم دفعوا لك لكي تقضي عليّ بالحرمان؟ (يرفع يده بإعياء لكي يهوي بها على الفرّاش ، يتراجع هذا قليلاً ، يدقّ جرس الطبيب بعصبية مرتين وثلاثاً ، ثم ما يلبث أن يطل هو بنفسه ، يهرع إليه الفرّاش).

الفرّاش إنه لا يريد أن يفهمني يا دكتور .. لم يردّ عليّ ..

(يتقدم الطبيب فيغدو على بُعد خطوتين من إدريس).

الطبيب (مربّتاً على كتف إدريس) ألا تحب أن تدخل غرفتي لكي أبدأ العلاج ؟ دقائق ويمكن أن نصل إلى نتيجة ..

إدريس (يحدّق فيه وهو يدعك جبهته) ..

الطبيب لقد قدّمت دورك على مراجعَين يسبقانك من أجل معاونتك ..

إدريس (يضحك وهو يتراجع قليلاً) أنت ؟ أنت تعاونني ، بعد أن أصدرت أمرك بفصلي عامين ، وسحقتني ؟ تسعى الآن لمعاونتي ؟ يبدو أن ضميرك قد استيقظ.. ولكن هل لديك ضمير لكي يستيقظ (يصرخ) أيّها المجرمون .. أيها القتلة ، تذبحون

الإنسان وتسيرون خلف جنازته .. ولكني لم أمت بعد وسوف أُقاصصكم واحداً واحداً (يتجه إلى ثامر فيكتشف أنه يدوّن شيئاً في دفتر مذكّراته الصغير) حتى أنت يا بروتس ؟ يا صديقي العزيز ، تطعنني من الخلف فتكتب محضراً باتهامي لكي تثبت عليّ التهمة المزعومة ؟

ثامر (يقفل القلم ويضعه والدفتر بارتباك في جيبه) أبداً .. أبداً ..

إدريس (وهو يتقدم منه) ماذا كنت تفعل إذن ؟

ثامر مذكّرات .. خاصة .. بي .. لا أكثر ولا أقل .. مجرد مذكّرات ..

إدريس ألم أقل لك كُفّ عن ملاحقتي (يصرخ مُشيراً إليه وإلى الطبيب والفرّاش وهو يتراجع بعصبيه) إنكم تضيّقون الخناق عليّ ، إنكم تحاصرونني (يرجع مرهقاً لكي يتهالك على الكرسي).

الفرّاش ليس ثمة فائدة يا دكتور ، هل نستدعي الشرطة لكي تُخرِجه من هنا ؟

الطبيب لا يا محمود .. إنها مسؤوليتي وسأبذل ما في طاقتي ..

الفرّاش لا فائدة يا دكتور .. إنني أشك أنه ..

الطبيب مجنون .. أليس كذلك ؟

الفرّاش ممكن .. وفي هذه الحالة ..

الطبيب (مقاطعاً) لو سلّمنا بذلك بسهولة ، لاضطرتنا لتحويل معظم مرضانا إلى مستشفيات المجانين .. قل لي هل لحظته جيداً وهو يدخل إلى هنا ؟

الفرّاش نعم ..

الطبيب كيف كان تصرفه آنذاك ؟

الفرّاش كان هادئاً تماماً ، وبعد حوالي ربع الساعة دخل مراجع آخر (يشير إلى ثامر) واختار أن يجلس إلى جواره يبدو أن أحدهما يعرف الآخر ، إذ تبادلا الحديث والمجاملات .. دقائق وفقد الرجل سيطرته على أعصابه .. وبدأ الصراخ ..

الطبيب (يتقدم من ثامر) دقيقة واحدة أرجوك ..

ثامر (ينهض ويتقدم من الطبيب) ..

الطبيب آسف لإزعاجك ..

ثامر بالعكس ، فإنني أتمنى أن أُساعده ..

الطبيب هل حقاً أنك تبادلت معه الحديث لدقائق عقب دخولك الصالة ؟

ثامر بكل تأكيد ..

الطبيب وما الذي عرفته عنه ؟

ثامر لا شيء أكثر من اسمه وعمله .. إدريس غانم ، مدرّس رياضيات ، لم أكن أُلاحظ عليه أمراً يدعو للدهشة .. كان هادئاً ودوداً بمعنى الكلمة .. ولكنه ما لبث أن انقلب عليّ وتصورّني عدوّاً .. ثم راح يكيل لي الاتهامات ..

الطبيب هل تتذكر تلك اللحظة على وجه التحديد ؟؟ أقصد هل بمقدورك أن تسترجع الكلمات، أو العبارات التي دارت بينكما ، فدفعته إلى تجاوز هدوئه .. كلمة أو عبارة بالذات؟!

ثامر (وهو يبذل جهداً لكي يتذكر) لا أدري على وجه التحديد ، ربما صدرت منّي عبارة استسلام .. كلمة هزيمة .. لست متأكداً على أية حال ..

(ينهض إدريس ويتقدم بهدوء إلى الرجلين ، يضع يديه على كتفيهما ويقول بصوت متيبّس وابتسامة متوجّسة).

إدريس إنكما تتآمران ضدّي أليس كذلك ؟

الطبيب (بابتسامة متوددة) بل نسعى لأن نعاونك ، وسوف تتأكد من ذلك بعد قليل ..

إدريس بل تتآمران ضدّي ولكنكما لن تهزماني ..

الطبيب (يجرّه من يده بلطف) اجلس إذا شئت هنا لكي ترتاح قليلاً ، واختر أنت الوقت المناسب للدخول عليّ ، وستجدني أبذل جهدي لمعاونتك ، سوف تتأكد من ذلك يا إدريس ..

إدريس (ينظر إليه بتوجس) إنّك تعرفني إذن ؟

الطبيب (محرجاً) طبعاً .. طبعاً .. إنه ما من أحد يدخل عيادتي هذه إلاّ ويغدو صديقاً لي .. نحن جميعاً أصدقاء يا إدريس ..

إدريس تعرفني وتفعل بي الذي فعلت ؟

الطبيب وإذا شئت أن نبدأ اللحظة فهيّا .. ولسوف نحلّ الكثير من المشكلات إن شاء الله ..

إدريس وهذا ؟ (يشير إلى ثامر).

الطبيب ما به ؟

إدريس هل سيكون معنا ؟

الطبيب (متردداً) إذا .. شئت ..

إدريس (يصرخ) لن أسمح له بالاطّلاع على أسراري .. إنه يريد أن يكتب عنّي تحقيقاً لكي يفضحني ..

الطبيب اطمئن .. فلن يدخل أحد مطلقاً غيري وغيرك ، إن عيادتي مكان مقدّس لحفظ الأسرار!

إدريس (يضحك بعنف) ولهذا تسمحون للمحقِّقين بأن يجيئوا إلى هنا لكي يهتكوا أسرار

الناس (يرجع لكي يجلس على أحد المقاعد مرهقاً).

ثامر (يتقدم إلى الطبيب) إذا رأيت أنه من الأجدى أن أنسحب فأرجو أن تصارحني ..

الطبيب تنسحب ؟

ثامر أترك العيادة لوقت آخر .. إنه أصبح لا يطيقني ..

الطبيب لماذا ؟ هل تسببت في استفزازه ؟

ثامر يبدو أنه لا يزال يحتفظ بقدر من ذكائه القديم ..

الطبيب يعني ؟

ثامر يخمّن أن مهمة التحقيق الصحفي هي الكشف عن أسرار الناس ..

الطبيب هذا صحيح إلى حدٍّ ما ..

ثامر أنا معك في هذا .. ولكنه يبالغ .. يتصوّرها فضيحة ..

الطبيب أتتصور أن هذا وحده هو الذي دفعه إلى اتخاذ موقفه التهجّمي ضدك ؟

ثامر يبدو أنه خلط أيضاً بيني وبين اثنين من خصومة القدماء.

الطبيب (بتلهف) هل تتذكرهما جيداً ؟

ثامر (يفرك جبهته) أحدهما ، لا أذكر أسمه ، طالب في الإعدادية التي كان يدرّس فيها .. طالب شرس .. كان يحيل دروسه بالذات إلى جحيم .. كان يسخر منه ، ويتعمد – كما يبدو – تمريغ كرامته امام الطلبة ..

الطبيب والآخر ؟

ثامر الآخر .. الآخر.. مدير الثانوية نفسها ، اسمه على ما أذكر رؤوف مصلح ..

الطبيب ما الذي كان يفعله ؟

ثامر يتصور أنه كان وراء الطالب الشرس وأنه هو الذي حرّضه عليه لكي يدمّره ..

الطبيب لماذا ؟

ثامر لا أدري ..

الطبيب (كمَن يتذكر) هل تخيّلك في شخوص أُخرى ؟

ثامر (يضحك) بالنسبة لي انتهى كل شيء ، يكفي أنني أصبحت في نظره ثلاثة أشخاص، محقّقاً يهتك أسرار الناس ، وطالباً شريراً ، ومديراً جباناً ..

الطبيب ولكنني أُريد أن أعرف هل إن الرجل وقف عند هذا الحدّ .. أقصد هل سمعته يطرح أو يتخيّل أسماءً أو شخوصاً أُخرى ؟

ثامر (يحاول أن يتذكر ، يبتسم) بعده جاء دور فرّاشك ، تصوّره واشياً حقيراً ، شاهد زور، ساعد على تدميره ..

الطبيب ثم ؟!

ثامر خرجتَ أنت لكي تتسلم نصيبك ، وتأخذ دورك !

الطبيب (مبتسماً هو الآخر) المدير العام الذي أصدر أمراً بفصله لمدة عامين !

ثامر اطمئن .. فلَسْتَ السبب على أية حال ..

الطبيب أعرف ذلك ..

ثامر (يقترب أكثر) هل تسمح لي ؟

الطبيب .. ..

ثامر ما دمت أنني قد جئت إلى هنا لأكتب تحقيقاً فهل لي أن أسألك (ينظر إلى ساعته) لقد أدركَ وقتي ، ولكنني أرجو أن أتلقى جواباً صريحاً لقد بعثتني صحيفتي إلى عيادتك باعتبارك واحداً من أشهر أطباء النفس هنا ..

الطبيب (بشيء من الحرج) ولكن ..

ثامر كان يتحتم عليّ أن آخذ منك موعداً ، أليس كذلك ؟

الطبيب كما ترى ، فإن عملي مزدحم ولا أستطيع أن أُؤجل أيّاً من هؤلاء المرضى .. إن حاجتهم للعلاج أشد إلحاحاً من المرضى العاديين ..

ثامر لا شك في ذلك .. لكنني أردت أن أجعله تحقيقاً على الهواء الطلق كما يقولون.. لم أشأ أن أخنقه بالإجراءات الشكلية والمعرفة المسبقة ..

الطبيب وكيف وقع اختيارك على هذا الرجل؟

ثامر إذا أردت الحق فإنني أعرفه جيداً .. نموذج للذكاء الذي ينتهي بصاحبه إلى الدمار.

الطبيب وهل كنت تعرف أنك ستجده هنا ؟

ثامر بكل تأكيد ..

الطبيب كيف ؟

ثامر (باعتداد) لدينا أساليبنا الخاصة !

الطبيب (بغيظ مكتوم محاولاً أن يداريه بابتسامته الوظيفية) من حقه إذن أن يتصوّرك تسعى إلى هتك أسراره ..

ثامر ربما ..

الطبيب ولكننا في عيادات من هذا للنوع لا نسمح بمحاولات من هذا القبيل ، إنها أسرار وإننا مسؤولون عنها ، اعذرني إذا تحدثت معك بأسلوب كهذا !

ثامر لك كل العذر ، ولكنه ليس ذنبي ..

الطبيب (متجاهلاً) ذنب مَن إذن ؟

ثامر الصحيفة التي كلّفتني بالمهمة ..

الطبيب لكنها ليست جهازاً بوليسياً على أية حال .. وأنت بدورك لست رجل بوليس.. كان بمقدورك أن تعتذر ..

ثامر (بشيء من الانفعال) لن يزيد الأمر أو يتقص بالنسبة لرجل كإدريس ..

الطبيب كيف ؟ إنك قلت بالحرف الواحد إنه استُفزّ لأنه تصورك محقِّقاً يسعى للكشف عن أسراره .. وما لبثت العقدة ذات الجذور المتأصلة أن امتدت واتسعت لكي يتصورك بعضاً من أولئك الذين تسببوا في دماره .. إنه يعاني من عقدة ((الاضطهاد)) وقد أدى سلوكك معه إلى تفجير هذه العقدة ..

ثامر يعني ؟

الطبيب يعني أنك زدت الأمر تعقيداً ..

ثامر اسمح لي يا دكتور هاني ، فها قد بلغنا النقطة التي أحببت أن أسألك عنها ..

الطبيب (بشيء من عدم الارتياح) ماذا ؟

ثامر هذه العقدة التي تتصورونها سبب كل تصرّف أو سلوك والمفاتيح السحرية التي تحلّ المشاكل والمعضلات ..

الطبيب نحن لا نتصورها .. ولكنه العلم الذي يقول ذلك ..

ثامر آسف .. لعلّي أسأت التعبير .. لكن المهم هو أن علاجكم يبدأ من العقدة وينتهي بها .. هل تعتقد أن رجلاً كإدريس انتهى إلى هذا المصير بسبب إحساسه بعقدة الاضطهاد ؟

الطبيب (بثقة) ليست وحدها طبعاً ، ولكنها واحدة من أهمّ الأسباب التي قادته إلى التفكّك ..

ثامر لست أتكلم عن نفسي يا دكتور هاني ، ولكنني أُحب أن أُعبّر عن رأي جماهير الناس ، وأن أمنحهم في الوقت نفسه الجواب الذي يقنعهم .. تلك هي مهمتي كصحفي .. قد يكون فيها أحياناً شيء من التجاوز ، ولكن ما دام الهدف مشتركاً فلا بأس ..

الطبيب (بسخرية مبطنة) أيّ هدف مشترك ؟

ثامر خدمة الإنسان !

الطبيب وماذا بعد ؟

ثامر أردت أن أقول بأن الكثيرين من الناس بدأوا يتشككون في مسألة العقد النفسية هذه!

الطبيب (بالسخرية المبطنة نفسها) وماذا تقول الصحافة في ذلك ؟ هل لها أن تعيننا؟ أن تبيّن لنا الأسباب الحقيقية وراء هذه المآسي التي يعاني منها كثير من الناس

(يشير إلى المرضى الجالسين) ..

ثامر الصحافة ليست لها كلمة نهائية .. فما هذه مهمتها .. إنها تكتفي بطرح الحقائق من جوانبها كافة ، تعكس هذه الحقائق ، وحينذاك يمكن أن تساعد ، مجرد مساعدة، على الاقتراب من الحلول ..

الطبيب حتى في مسائل علم النفس ؟

ثامر ما دام أن علم النفس يتصل بالإنسان ، فإن لها أن تتدخل حتى في هذا ، ولكن ليست هذه هي المشكلة .. إنها تكمن في أن هناك جوانب أُخرى ، وإن معاناة الإنسان ليست فقط بسبب هذه العقدة أو تلك وإنما أيضاً بسبب الظروف الخارجية التي تحيط به .. تضغط عليه ..

الطبيب (بثقة) إن العقد التي تشنّ حربك عليها لا تتخلّق في الفراغ ، ولا تجيء من الفراغ ، إنها الظروف طبعاً ، ولكن الحصيلة النهائية التي تكثّف معطيات الظروف تتمركز في نفس الإنسان من خلال هذه العقدة الملتوية أو تلك ، فتفعل فعلها في سلوكه ..

ثامر (وهو يدوّن في دفتر ملاحظاته ما يقوله الطبيب) إننا متفقان إذن ، ولكن تبقى المشكلة في أنكم تقفون أكثر مما يجب عند هذه العقد ..

الطبيب (ينظر إلى ساعته بشيء من نفاد الصبر) ذلك بحكم اختصاصنا.

ثامر آسف إذا كنت قد أخذت من وقتك وعطّلت مرضاك ، ولكنني أُحب أن أقول في نهاية الحديث إنكم وحدكم لستم بالقادرين على الحل ، ومهما أُوتيتم من علم فلن يكون بمستطاعكم إنقاذ الإنسان ..

الطبيب إننا كعلماء لا نرتاح – بصراحة – للهجة تعميمية كهذه .. يبدو أن للصحافة لغتها الخاصة ، وأنا لا أفهم مفردات هذه اللغة ..

ثامر أبداً ، فالمسألة أسهل بكثير مما تتصور ، وها هو الرجل الذي يجلس قبالتنا (يشير إلى إدريس من طرف خفي) يلّخص لنا بمأساته هذا الذي أُريد أن أقوله .. إن الوضع العام .. البيئة الخارجية التي عايشها طيلة أربعين سنة هي التي انتهت به إلى الدمار ..

الطبيب أعتقد أنني وافقتك على هذه المسألة ، فلا داعي لإعادة القول فيها (ينظر إلى ساعته مرة أُخرى) ..

ثامر بكل تأكيد، لكن الذي أردت أن أقوله هو أنه ما لم تتحقق البيئة التي يحيا فيها الإنسان متوازناً ، حرّاً ، آمناً ، فلن يكون بمقدور ألف من علماء النفس أن ينقذوا إنساناً مضطهداً كإدريس !

الطبيب لكنني أُؤكد لك أنني قادر على إنقاذه ، وأخشى أن تضطرني في يوم قريب إلى إجراء تحقيق آخر في صحيفتك نفسها ، يتناقض هذا الذي تقوله الآن ..

ثامر ليس ثمة تناقض على الإطلاق ، لأنك إن قدرت على إنقاذ هذا الرجل ، فسوف تشهد عيادتك ألف رجلٍ مثله .. إنهم يتكاثرون لأن العالم يشجعهم على ذلك .. إنك تقول عقدة الاضطهاد وأنا أقول عصر الاضطهاد .. وأرجو أن نلتقي في يوم ما (يطوي دفتره ويضعه في جيبه) ..

(وإذ يهمّان بتوديع أحدهما الآخر ينتصب إدريس قبالتهما وهو ينظر بذهول).

إدريس ألا تزالان تتآمران عليّ ؟ أما يكفيكما ما فعلتماه بي ؟! (ينظر الصحفي إلى الطبيب نظرة ذات معنى ثم يشدّ على يديه مودّعاً).

– ستار –